اِنشِطارُ الطَيرِ

المجموعة القصصية الفائزة بجائزة أخبار الأدب

أحمد عبد العاطي



انشطار الطير

أحمد عبد العاطي

الطبعة الأولى ، القاهرة 2018م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 3906 /2018

I.S.B.N: 978-977-488-563-1



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

انشطار الطير

قصص

أحمد عبد العاطي



دار اكتب للنشر والتوزيع

" المجموعة القصصية الفائزة

بجائزة أخبار الأدب لعام 2016"

إهداء

إلى نوريهان..

وحدك تعرفين ما أريد.

العمى

ا و ا

الصُّراخ لا يُجدي، الصراخ والبكاء، كلاهما استنفار يائس في وجه الظلمة الكثيفة كأنها حائط سميك، لا صوت يعلو فوق صخب ممطوط لمعادن كأنها تُسحب على سطح متعرج، وصلصلة تصدر بشكل متقطع، وضحكات يتخللها شخير هادر تُعبِّر عن فداحة الموقف، في ظِلِّ عمى أصاب العين. وحده الرب أعلم بما وقعتُ فيه.

– يا أعمى!

آليًا انتبهتُ، والحواس الأربع المتبقية أرهفتها،وراحت الضحكات تنفجر كما لو كانت تنتظر إيماءة تُنبهها. عاري القدمين، وسطح أملس به رطوبة تستحثُّ ارتعادة تسري إلى عيني المغمضتين.

– يا أعمى!

وضحكات كعواء تصخب..

أصختُ السمع، وفيما ركزتُ بدا الأمر كحُجرة مغلقة، أهلها منتشون، يستمتعون بتعذيب العاجز الوحيد هنا "أنا" بالسخرية. قريبة كانت اليد مني تتحسس أنفي، مرورًا بالشعر والصدر وبطني ثم....

– يا فاجر أو يا فاجرة!

وراح الجنون – فيما أهش بعنف الفراغ– يتفاعل بذلك المكان، ويريق على الحناجر فحيحًا يكتم السخرية، ولكن لا تلبث الهمسات تعلو حتى تصطدم بجدران الغرفة الصماء. الخوف ترنح تحت وطأة الغضب، وأبدلتُه رغبة عنيفة في الانتقام. لم يخلف الأمر على مدار دقائق جديدًا، وترددتْ أنفاسُ نومٍ عميق وشخير. عندها بدأت أتجول متسائلًا عما ألَمّ بنور عيني، وتناوشت قدمي مع أجسادهم النائمة، تدانت وباتت ملتصقة بغير موضع لقدم. ولما جرفني السؤال والسخط، أحسست بانتصاب جثثهم في المكان، وأنفاسهم الباعثة على الاشمئزاز..

– ما زلتَ هنا يا أعمى؟

سأل أحدهم، وحثّ الآخرون فجأة خُطاهم بالركض والتجاذب، وغير نفر راحوا يندفعون تجاه خفي يتقاتلون عليه.

– دوري في الرؤية!

– إنه دوري أنا.

– لم أرَ الدنيا منذ يومين.

أصوات عديدة، وهكذا بدأت تتطاير النداءات والتوسلات، وخلت الغرفة أو كادت إلا من تلك البقعة التي تموضعوا حولها، ولما سألت، أفاد أحدهم أنه الوقت المخصص لرؤية الخارج من كوة النور، تنكشف في مثل ذلك الوقت في الحائط لسبب مبهم، ينظرون منها لحدائق بديعة ويتنشقون الهواء، ثم أخذ أحدهم بيدي، وجعل يجرُّني بلا اهتداء، استشعرت النّيل من كرامتي مرّة أخرى، لكنه وضع يدي على انفراجة يلفح الهواء منها، وقال صوت أنثوى بتمايع:

– هنا الهواء والضوء، أما الضوء فأنت لا تراه بالطبع.

وطفر صوتها مجلجلًا بالسخرية، ثم نال الإعياء مني، وهُيئ لي في تلك اللحظة أن العمى هو أجلّ الأحداث، وقدرتُ حينها أنه يحيل ارتعاشة الجفون إلى دقات ساعة رتيبة. ويتيح للمرء اختبار الموت والحياة في جسد واحد. وانغمس الجمع في حديث لم يميزه أحد، وهم يرددون من لحظة لأخرى لفظ "الأعمى"، انتبهت وقتها كم أشتاق إلى طفولتي التي أراني فيها صامتًا جدًّا وممددًا في ظل فروع مورقة، ربما أتاني العمى كي لا أرمق نظرة السجّان الهازئة هنا ونظراتهم، ويجعل تلك الصور المتتابعة هي ما تلحق بخيوط الذاكرة فتظل حبيسة عدستي المظلمة.

منغمسًا في الخيالات، التقطتْ أذني صرير باب يشرع، باب ضخم، وصوت هراوات جعلتْ من الجالسين حولي فئران تفر من هررة، الضربات تصدع الحيطان، وأصوات عظام تتهشم، حينها زعق الصوت غاضبًا:

- إلى الخارج يا مجانين!

صَمَتَ برهة، وبذات الغلظة:

- إلى الخارج يا عميان!

***

عصا موسى

ممددًا على ظهره كان، مُغمَض العينين، فاغرًا فاه، تصطخب السيارات بأبواقها الناقمة، فيما راح آخرون يخمدون النيران التي تشبثت بوريقات الشجرة الخضراء بجانبه والتهمتها، ولم يلحظوا عود الثقاب المُلقى بمحاذاة جذعها. الجمع الذي احتشد حوله؛ حاولوا إفاقته، فذهبتْ محاولاتهم أدراج الرياح. واقترح أحدُهم أن يضربه بالعصا الملقاة بجانب الرجل الذي طرحه الحريق أرضًا؛ كنوع من العلاج؛ فهاج الناس بدورهم وبدؤوا يتقاذفون صاحب الاقتراح خارج كتلتهم المتجمهرة حول ذاك الذي رثت ملابسه، لا حول له ولا قوة.

وحينما غزلت خيوط الشمس المتلاحقة على وجهه ضوءًا كثيفًا على هيئة عروق تفلتتْ من بين الرؤوس؛ أخذ يتلوى كأفعى صحراوية، ربما رشفة الماء التي أفرغها أحدهم في جوفه، أسعفته إلى حدٍّ بعيد، وجعلت الحركة – وإن كانت متثاقلة – تدبُّ في جسده

الأسمر النحيل مرة أخرى. لوى عنقه كأنه يستنكر هؤلاء الذين وقفوا سادّين عنه الهواء والضوء، وأكثرهم ذاك الصبي الذي وقف أمامه يراقبه بحذر.

- ما اسمك؟

سألته امرأة عجوز وجهها متعرج وفمها منكمش.

- النبي موسى!

أجاب الرجل.

لم تخفِ وتيرة الهمهمات المتصاعدة آنذاك، وربما لم يكفِه هو نفسه أن وقْع ما قال ليس هينًا على النفوس، ولم يتوقف انصراف سيل الناس عنه وهمهمة من تبقى منهم، إلا حينما فتح فمه ليسرد:

- لقد رأيتُ الله!

انطلق الضوء هذه المرة من أعين الواقفين، ولم تنطلق من عيني الصبي الصغير الذي تحاشى الجمع نحو سور الكوبري المار فوق النهر.

وأكمل الرجل:

- جئتُ لأخلصكم

ذاع صيته، وخلال أيام قلائل سيعرف الصبي أن دائرة البشر حول الرجل النبي آخذة في الاتساع كل يوم، يتحلقون للتبرُّك به وللاستماع إلى التعاليم التي ستنقذهم في اليوم المعلوم.

ذات ظهيرة أسرع الرجل كالمجنون يسد الكوبري بمريديه وتابعيه، يفترشون الأرض بأغطية مرقعة حوافها، وحينما استتب لهم الأمر وتأكدوا ألا ذرة غبار ستثير جمعهم، هدؤوا واستكانوا، واحتلوا الطريق، حتى الأسوار لم تسلم من تسلق بعضهم والنوم عليها أحيانًا. النهر تحتهم، وهم يستمعون إلى حديثه الذي رأوه أخّاذًا. اندفع الصبي في لحظة مارقة، حتى هَدَته قدماه إلى وسط المجلس، إلى الرجل النبي، فصاح الصبي وشررٌ يحرق وجهه:

– يا رجل، أنت خرافة، ستموت!

ضحك الرجل طويلًا، حتى رجع رأسه إلى الوراء، يكشف عن أسنان ضرب فيها الاصفرار جذوره، ثم اقترب من أذن الصغير وأصدرَ فحيحًا هامسًا:

– أنا حقيقة والحقائق لا تموت يا ولد. فهمت؟

ثم رجع مرة أخرى، نحو الضحك المتقطع المرتجف، وطالعتِ الصغير نظراتُ الناس المكشرة عن أنيابها، وحينما أراد الرجل تهدئة الثورة التي حَـــمِيَت حول ذلك الصغير، ألقى عصاه في وجهه، وطمأن مواليه أن الحية التي ستدب فيها الروح في تلك العصا، ستلتهمه..

تراجع الناس إلى الوراء، يترقبون فناء ذلك الصغير الذي أطلقوا عليه أصواقم بالنفير:

- اقتلوا الكافر، اقتلوا الكافر!

يدبون الأرض بأقدامهم، وحينما تأخر انبلاج الحية، أقسم بعضهم أنهم رأوها تتحرك لتلتهم الولد إلا أن الرجل النبي أمسك بها قبل أن تصل إلى قدميه رأفةً به.

قال مناديًا فيهم، موجهًا حديثه نحو الصبي:

- بدلًا من ذلك، عقابك أن تمشي عاريًا في المدينة سبعة أيام"، وفي اليوم السابع لم يجدوا الصبي.

وقف الرجل ذات يوم على حجر كبير، يخطب فيهم، ويبلغهم أن اليوم هو اليوم الموعود، وألا خلاص لهم إلا باتباعه صوب النهر. بكى بعضهم شوقًا، وارتمى آخرون تحت قدميه، يلحسونهما بلسانهم، أما القلة المتروية بعيدًا، أخذوا يرتعشون تحت وطأة البرد.

همَّ بالانطلاق - ممسكًا بعصاه- تجاه النهر الذي اشتد انجرافه ذلك الصباح، يتقدمهم كسرب مهاجر، ضرب النهر بعصاه، فلم تتفتق اليابسة،ظل قلقًا مدة ساعة كاملة، وحينما أصابه اليأس أمرهم:

- اتبعوني.

غاصت أقدام من تقدموا الصفوف أول الأمر في النهر، وتراجع آخرون خائفين إلى الوراء، يقول لهم:

- ستهلكون ياحمقى!

ردوا:

- سننتظركم.

وحتى يتفادوا تعنيفه ولعناته أكملوا تبريراتهم:

- سنمكث هنا حتى نُكمل الدعوة.

لم ينظر إليهم، وظلّ يتقدم - هو- المندفعين نحو مصيرهم.. تجاه الخلاص.

الماء يغمر وسطهم.. الماء يغرق رؤوسهم.. الماء يبتلع أذرعهم.. أكفُّهم ظلت مثبتة طوال دقيقتين كضفادع نافقة فوق النهر، ثم اختفتْ تمامًا، وظلت عصاه تطفو بتمايل فوق سطحٍ الماء الراكد.

بعد أيام، كان المشهد: عصاه مغروسة في حديقة عامة، تنمو يومًا عن يوم، والناس ساجدون حولها، وكلما رأوها في حالات متقطعة، يجدون أنها تنبت عصي ضئيلة، لم تنضج بعد، عصي كالعصا الأم. وظل الناس في تلك البقعة المظلمة من العالم تراودهم الأحلام عن ذويهم من الغارقين، يصفون الجنة لهم ونعيمها، فيما ظل آخرون يقسمون طوال حياتهم أنهم رأوا ذلك الرجل النبي،ومَن حولَه، يعبرون النهر بسلام، إلى الضفة الأخرى.

عجوز القطار

على رصيفٍ أخرس، وقفت بلا حراك أنتظرُ قطارًا آخر غير الذي فاتني، كان الحر ينشر رداءه على رؤوس تخفّتْ تحت المظلات وأوراق الجرائد أو أشجار لم تسقط أوراقها المُصفرة بعد، كانت الأنداء الحارة على جبيني قد نبهتني أن ألتمس أحد المقاعد المجاورة التي تعلوها مظلة تمنع بعضًا من حر الصيف، جلست أتكئ على يد المقعد ثم هممت بتصفح جريدة كنت قد اشتريتُها من البائع الجالس خارج المحطة.

- لن تستمر موجة الحر طويلًا

قالتها بجانبي بعدما أزاحت خصلاتها البيضاء عن وجهها الذي بات راكدًا على ما يبدو منذ فترات طويلة، شعرها الناعم يوحي بأن الزمن لم يكن ليجرؤ أن يقترب إلا من لونه فحسْب، نظرت إليها على غير اكتراث ثم ابتسمت سريعًا حتى لا تتمكن من التقاط أول خيط تضع في أوله كلامًا يجهدني ويشغلني عن قطاري القادم.. حاولتُ أن أقومَ من مكاني وبصوتٍ خفيضٍ؛ كيلا أخدش ترقُّبها، همستُ:

- الله يعيننا ويعينُك يا أمي.

ابتسمتْ لي بدورها ولَمْ تُشحْ نظرَها عن عيني، عيني الحيرى التي تسترق النّظر إليها تمامًا كمذنب، لا أدري كمْ كان عمرها، ولا أدري إنْ كانت هذه التّجاعيدُ الغائرة تسيل أعوامًا أمْ عذابًا. لوّنت الشمسُ الصارمة ملامحَها المتألّمة، وابتسامة أكثرُ صرامة لم تبددها وفرة الروايات على وجهها، حتى إنني لا أعرف ما الذي دفعني لأن أنظرَ إلى عينيها المتوهجتين! وكباحثٍ عنْ سطرٍ ضائعٍ، اقتربتُ أكثر، ثم جلستُ بجانبها مرة أخرى.

علتْ صافراتُ القطارِ المؤذنة بقدومِه، يقتربُ ببطء ليتوقف في محطتنا.

"ها قد جاء قطارُنا" هللتْ بمرحٍ وكأنها أصابتْ ورقةَ اليانصيب، ردةُ فعلِها كان لها من المُبالغة ما أثار حفيظَتي قليلًا؛ فقمتُ مُتعللًا باللحاق بالقطار قبل أن يتركني معها.

في القطار، بعد دقيقتين ذقتُ فيهما عناءَ اختراقِ الجمع الذي كدّس مدخلَ القطارِ كيومِ حشر، وجدتُ مقعدي أخيرًا قريبًا من باب الدخول. وضعتُ حقيبتي الخفيفةَ ثم ارتميتُ على مقعدي مهدودًا، ولَولا صافرة القطارِ لأدركني النعاس وغرقتُ فيه، إلا أن الفزع الذي تملّكني على إثر الصافرةِ، لم يكن بقدرِ ما أحسستُه عندما وجدتُ المرأةَ العجوز تتقدمُ ناحية مقعدي وكأنها تبحثُ عن شيءٍ آخر غير

المقاعدِ، وبنظرتها الثاقبة، تلاقت أعيننا حتى سرتْ رعدةٌ خفيفةٌ زحفتْ من أسفلِ ظهرى إلى أعلى عمودي الفقري، وجلست بجانبي.

– أهلًا يا ولدي، آسفة على تأخيري.

قالتْها باطمئنان دون أن تنظر إليّ، ووجدتُني أردُّ على تحيتِها ذاهلًا دون مقاومة..انطلق القطار بسرعة، على وقع النبضات المتلاحقة التي أصابتْ قلبي. بهدوءٍ يُشبه أنينَها الخفي، أخرجتْ حافظةَ نقودِها التي كانتْ تعجُّ بالمال، وبصورٍ قديمة وحديثة مختلفة الأحجام، انتقتْ من وسطها صورة قديمة لطفلة تشع نُورًا، ثمَّ أغلقتْ الحافظةَ بحذرٍ وكأنّها تخافُ على تحفةٍ فنيةٍ هشةٍ، أعطتني الصورةَ وقالتْ:

– هذه أنا حينما كنت طفلة، أتعلم؟هذه الطفلة ما زالت بداخلي، ما زالتْ ترقص وتُضاحِك الصغارَ قبلَ الكبارِ، تجرِي في أزقةِ الشوارعِ، وتُشاكسُ العصافيرَ في العش، لم أتخلَّ عنها قط، ولكن يبدو أنها ستتخلى عني عما قريب.

عادتْ إليها مسحة الحزن التي عهدتُها حينما جلست بجانبها أول مرة، أغمضتْ عينيها وأخذَتْ نفسًا عميقًا منتشيًا، وكأنَّ النّسماتِ الّتي داعبَتْ رئتيها لْم تشبه الهواءَ المكدس بالدّخان الذي تنفّستُه فملأ صدري. أعطيتُها صورتَها بقلقٍ تفرستْه في وجهي..

بعد أن ابتسمت لها ابتسامة واهية. كان صوت الناس قد بدأ بالازدياد، يدخل مباشرة في أذني، أما صوتُها، لسببٍ لا أعرفُه، كانَ

يخترقُ صدري، ويستحضر ماضيًا قريبًا، فبتُّ أسمعُ في همساها صوت أمي.

بدون مقدمات وجدها تُشهرُ صورةَ لشابةٍ عظيمة الجمالِ في وجهي يبدُو أنّها تتمايلُ على أنغامِ موسيقى راقيةٍ كحركاتِ الباليه التي لا أفقه في تموجها شيئاً!

قالتْ:

-كنتُ شابةً يافعةً.

وتضيفُ:

– هناك تعرفتُ إليه، كانتْ عينَاه تُتَابعانني باهتمامٍ، كان يتأملُ حركاتِ جسدِي اللينةِ دون أن يملَّ، حتى هَبّ من مكانِه واقفًا، ثم بحركتِه الأسطورية المُمتَلئة بالرجولة، جاء إليّ وأمسك بيديّ، ودون أن أنبس بجملة واحدة، غصتُ في أعماقِ عينيه اللتين ارتسمتا بشغف عاتٍ، ثم أسلمتُ له نفسي، حتى أخذتْنا رقصتُنا إلى ليل فجر أتى سريعًا.

عادتْ إلى صمتِها ببطء، وحين واجهتني تمامًا لاحظتُ ملامحَها المستكينة، الوجهُ مغضنٌ، إلا إنّه كان ثابتًا، ثم لمحتُ في يدِها الأخرى وردًا أحمر، لحظتُها خُيِّل إليّ أها لديها ما تقوله.

– ولكن انتهى كل شيء وأنا ما زلتُ هنا أنتظر.

قالتها بصوت مختنق ثم استطردتْ تقول:

- هذا ابني..

وأخرجتْ صورةً حديثةً لشابٍّ تفوقُ وسامتُه بعضَ المشاهيرِ الذين أراهُم في الأفلامِ العالميةِ، وتابعتْ:

- هل ترى ذلك الثوب الذي أرتديه؟ لم ألبسْهُ منذ تُوفي عاصم العام الماضي..

- مَنْ عاصم؟

سألتُ بسذاجة..

ردّتْ بلطفٍ:

- ابني.. ابني عاصم.

نظرتُ إليها مُستدركًا، طالبًا منها العفو في سري عن تذكيري إياها بما تحاول نسيانَه، قالتْ بلغةٍ أكثر لطفًا بعدما قرأتْ تأنيبي لضميري:

- لا تقسُ على نفسك يا بني، أنا أصلًا لم أنسَه..

فتحتْ فمَها لتُكمل إلا أنها عادت فشدتْ شفتيها بعضهما إلى بعض بإصرارٍ، وامتلأتْ عيناها بالدمعِ فجأة، وحين لم تستطعِ التغلب

على دموعِها، لوَّحَتْ بيدِها المرتعشةِ إلى الصورةِ الملتصقةِ بيدِي، ثم أمسكتْ بيدي تعتصرها بين أصابعها الواهنة..

- أرجوك لا تترُكني يا عاصم.

قالتْها ودمعُها يتلاشَى شيئًا فشيئًا، ثم ما لبثتْ أن استبدلتها بضحكةٍ هيستيريةٍ تجلجلُ الأرجاءَ.. انتفضتُ واقفًا، ثم أكملتْ:

- لا تتركني ثانية يا عاصم..

راحتْ نظرةٌ مندهشةٌ تنسابُ من عينيّ حتى غمرتْ وجهي المتعرق..

- أ.. أ.. أنا لستُ عاصم. فزعتُ ويدي يملؤها الارتعاش.

ثم جاء الكمساري الذي انبثق من الأرض، وأمسك بها من ياقة ثوبِها، وراحَ يقولُ:

- أنتِ مرة أخرى يا عزيزة؟ ألم أقل لك إن ابنك ليس على هذا القطار؟

تصرخُ:

- لا، إنه عاصم.

ثم نظرتْ إليّ وهي تستغيثُ قلبي:

- قُلْ لهُ أنْ يترُكني يا عاصم، قُلْ لهُ..

وحين لم أجد ما أصرّحُ به عندما أخَذَ الكُمسري يجرّها من ياقتها المتكسّرة، وهي تهتف دون توقف..

استيقظتُ من نومي الذي طمَرَ عينيّ بجناحيه الثقيلين، على صافرة أخرى من القطار..

وجدتُ القطار ما زال في مكانه لم يبرحْهُ، وأنا ملتصقٌ بمقعدِي، وهي ما زالتْ تجلسُ في مكانِها خارج القطار على مقعدِ المحطةِ، تنظرُ بعيدًا عني إلى شيءٍ لم أتبينْهُ في السماءِ.

***

حينما رأيتُ روثيكا أول مرة، وهو مغنٍ لم يعرفه أحد غيري لأنه يزورني بحلمي الخاص بعد أن استدعيتُ الربَّ في مناجاة فحضر؛ بتُّ مشدوهًا. وحينما استيقظتُ، هرولت أخبر أبي أني رأيتُ المسيح. كان أبي نحاتًا، تحيطه العظمة حينما ينفخ الحياة في الصخور، مستخدمًا في ذلك معولًا ومطرقة، رنينهما المتسارع الخافت، هو الأحبُّ إلى قلبي حتى الآن..

رأيته يدقُّ بهما أيامًا في حر النهارات المختلفة، يجفف حبيبات عرقه، قبل أن تبخره الشمس وتسرق لمعانه.

استيقظتُ على تبريره يومئذٍ، من دون سؤال، عما يدفعه لتحمُّل سُعار الشمس في أثناء النحت:

- الشمس تحوي الأرواح، كما هي الصخور تحوي الأجساد.

ثم يصفر مستمرًّا في الإحياء،كأنما بصفيره الممتع، يستدعي الطيف الكامن في الصُّلب.

ومنذ ذلك الوقت، لازمني هاجس أن الله يسكن الفن. ألحان موزارت تطرد الشياطين،وجيوكندا دافنشي يمكنها ملءُ يومي بالحب، وهاملت شكسبير أقرؤها كما لو كانت تسكرني الطقوس والابتهالات على المذبح؛ ثمة قدرة واحدة بإمكانها إحداث ذلك التأثير بداخلي، هي روح الله بلا شك .

للوهلة الأولى أدركتُ الحزن في قسمات روثيكا، واللحن يعزفه بشجن موزع بين الأمل والفقد. اعتدت مجيئه، ثم بعد ذلك أفصح عن اسمه فقط. وفي الأيام التالية، مضى ينشد لي وحدي على أوتار مندولينه، لحنًا جديدًا كل مرة، لم يخلُ من المرح يومًا، وكأن عري روحه قد استتر بدفء الاقتراب. الألحان من المتعة بحيث جعلتني أتحين لحظات النوم ليلة تلو الأخرى.

ألحانه بمنزلة شموع، تثور على ظلمة الذاكرة؛ لذلك بتُّ أحفظها سُلمًا عن سُلَّم، وحينما تم لي من الأمر معظمه، رحل. راضيًا كان وواثقًا بشيء أجهله. وفي مطلع الشباب شرعت الطرقات في المدينة وأروقة الحانة الكبرى، تعجُّ بقبعات الاحتفاء، تترامى عند قدميّ سوداء لامعة، وأخرى مرقعة مغبرة، أقداح تضرب أقداحًا، ورءوس تتمايل من ارتحال الشمس، مرورًا بالغسق المنتهي ببزوغ أكاليل الفجر المريمية على الجبال القريبة، وقد أقلعت الأرواح إلى مخادعها.

المندولين في يدي يسبح بحمد لحنك يا روثيكا، وهذا أحدهم استفزه لحن منك يومًا فقال :

– يا بني، أنت تحقق كلمات الرب في تلك المدينة. ما اسمك؟

– اسمي روثيكا!

ما حدث أن اسمك قد التصق بكياني إلى مالا نهاية، أنت لا تمانع، أعرف ذلك تمام المعرفة، خاصة بعد أن نالني نصيب عظيم من الشهرة، أتذكر أني كلما رحتُ أجوب المدن المجاورة، تشرق بي الشمس مع كل نوتة يُراق عطرها، أجمل النساء، وأجمل السحب، وأجمل الجبال، وحزم الضوء تنام في يدي.

كان أبي نحاتًا، بكته يومها منحوتاته المعتقة عندما رحل، لم يبقَ منه سوى بضع أحجار هي مكامن لأصوات الحزن والألم، تنوح ولا يتوقف نواحها إلا مع الظهيرة، ثم تكمل الاغتسال بالدموع إلى الليل. الحزن صعب يا روثيكا لو تعلم..

الحزن يقطع اللحن، يجعله ضامرًا، ويفطر الحجر. ما باليد حيلة.

لقد بكيتُ أنا أيضًا لأيام وليالٍ طوال، داخل الغابات المخضرة، وتحت السماء الشاسعة، نعم رحلتُ، ليس بمقدوري المزيد.

لقد توقف المندولين، ورنينه الجامع لآهات الساكنين، وبدا السلام المنبسط فوق المدينة، يتأرجح مرتعشًا، مع حلول الليل. والآن وأنا

أرى وقوع المدينة في براثن ما نسجه الظلام من غيابي، أشعر بالندم يقرض شفتي؛ لقد انبثقت المخلوقات الأسطورية من السواد، وجعلت تدير رحى الدماء في المدينة، لقد أوجدتها أنا؛ خلقها ابتعاد الأوتار عن مهمتها. كنت مخطئًا؛ التيه في الأرض لا يمحو الفقد.

توجّب عليّ -ساعتها- مواكبة الجنون. الفقد جنون يا أبي، وإلا ما الذي يفرق الأحبة غيره؟ لقد قررتُ ان أعود وأتفقد الأحوال، يعز عليّ مفارقة الحزن عليك. هذا وكلي يقين تام أن المرايا المهشمة لا تجتمع كسراتها كاملة.

أبانا الذي في السماء، كن لي عونًا، وفرجًا، ونَفْسًا لا تتبطر على النعم. لقد سيطر الظلام ومخلوقاته، نُصِبَتِ المحاكمات العلنية على اهتزاز أي وتر يطرب، حتى حناجر العصافير المشرقة تم جزها. فكن جانبي كعهدي وعهد المحتاجين بك. سأعود باللحن مجددًا، واللحن كما قال روثيكا: برزخ بين الحياة والموت. يا إلهي!

حينما عُدتُ، كانت تلك البقعة، والتي ازدهرت يومًا بتنوع الألوان والأضواء، منطفئة كحشرجات الرمق الأخير، يعشش بين جنباتها العنكبوت وتحط فوق الأرفف الغربان.. تماثيل أبي تتناثر مُفَتَتة على الطرقات، وأحد تلك التماثيل معلق من رقبته، آلمني مشهده كأنه لفَظَ الروح بعد معافرة، يسكن جسده الريح والبرد والخوف.. وتلك النظرة المرتعبة على وجهه..

لم ألحظ التفاف القمر حولي أول الأمر، إلى أن مد ذراعيه بأحضان الماضي، وانسكبت دمعة ضربتْ - لأول مرة منذ سنوات عدة- أوتار المندولين. الطرقات تلتمع بأنداء المطر، على ضوء فضي يترقب. وحدي أعزف، أكبح رغبتي في الصراخ، ومع أول مطلع للفرح في الأوتار، ظهرت تلك الأشباح من بعيد، مكسوة بالظلال السوداء والموت، تصدر صرير النهاية في عباءات حالكة وعيون حمراء مضيئة. حملني ذلك بين الهذيان والصحو، وبدلًا من أن أستدير لأرحل، واجهتُ مصيري كاملًا، وفي أيديهم تحت لحظتَي نجاة واندثار، نجاة الترانيم واندثاري أنا.

كان عليّ ذلك يا روثيكا، ألا تفهم؟ أنا من جلبهم؛ لقد خنتُ مندولينك.

في البدء عرضوا عليّ الماضي كاملًا، أحباب وأصحاب غادرتُهم طويلًا، وشوارع لم أمشِ فيها منذ سنوات خمس، أدخل بيوتًا تسكن في أعماق روحي، كانت يومًا تمتلئ بالصخب والحب، مهددة الآن بالتآكل والهدم. وهناك في منزلي وضعوا أسيجة ومعادن مشبكة، إنه سجن، منزلي أحالوه لسجن وقاعة محاكمة يا روثيكا. زجوا بي فيه. انطفأ النور في عيني، ودوار الحيرة أمرٌ ما عذبني لحظتها. إنه الإغماء والرحيل أنعم بهما بلا أدنى قدرة على استحضار الألحان. وفي ذلك

الصحو المزيف، أو لنقل في حلم، رأيت طفلًا.. يبحث في حشائش الأرض، لا يفتأ يلاحق فراشات ملونة بكلتا يديه، ملامحه ليست غريبة، إنها مألوفة إلى حَدٍّ كبير، رأيتني في هذا أمسك بالمندولين حزينًا، اقترب الطفل مني وسأل:

لَمَ أنت حزين؟ فلم أُجب. مرة أخرى سدد سؤالًا: أأنت المسيح؟ فمسحت على رأسه مبتسمًا ولم أُجب أيضًا.

- ما اسمك؟

- اسمي روثيكا.

- أنحن في حلم؟

- على ما أظنّ.

في الأيام التالية، رحنا نتلاقى في الحلم، أنا أضرب على الأوتار بألحان مرحة وهو يدوّن، قائلًا:

- اعزف يا روثيكا، اعزف.

***

هـروب

كنتُ في الخامسة حينها، وكان الليل بالخارج يبرق ويرعد.

أبي وأمي نائمان في سلام، وباب المترل على ما يبدو لم يُغلق جيدًا.

الليل وقطرات المطر والحرية والفضول، كلها عوامل اجتمعت تدعوني لتلمس أولى خطواتي نحو الخارج.

تعجبت لنفسي إذ لم أخَفْ ولم أتردد، لم يكن صوت خطواتي ظاهرًا إلى الحد الذي يوقظ والديّ، فمررتُ عبر الباب ووجدتني في الطريق بمواجهة الظلام والمجهول.

تُرى هل يعبر الذئب من هنا كما حكت أمي؟ أين هؤلاء اللصوص سارقو الأعين والقلوب الذين حكى لي أبي عنهم؟ لا يصلني من ذلك كله إلا ضوء أعمدة الإنارات خافتًا في مواجهة البرق، أو صرير حشرة تشعر بالملل، وثغر القمر بين الغيوم يبتسم في ذبول.

لم يُخِفْني سوى وجه جارتنا المرتعب يطل من شرفتها بالأعلى، تستصرخ زوجها النائم علني أتوقف، وتسألني:

كيف تقف يا حزين وحدك في تلك الساعة المتأخرة؟

اختفت، وبعد قليل كانت ذراع أبي تتأبطني بخوف ولهاث أنفاسه يتداخل بدقات المطر في أذني، ووجه أمي في المترل يغرقه الرعب والحيرة.

لم يعاقباني، فقط قاما باحتضاني وناما بجانبي.

أنا الآن في العشرين من عمري، أبي وأمي لا يوصدان الباب في الليل، أشعر بالخوف يكبِّلني، خاصة في ليالي الشتاء، أتربس الباب بترباسين، وأزيد بثلاث تكات من المفتاح. ألتفُّ تحت الغطاء مرتعشًا، وأسأل نفسي كل يوم:

لِـــمَ لَمْ أهرب وقتها؟

***

صفائح الطين

في الحلم رأى عشرات الأطفال تُهرع إليه، الناس والدنيا تضاءلوا حتى باتوا كحفنة في يد طفل وحيد رآه يعبث بالطين؛ فأستيقظُ مفزوعًا.

في الآونة الأخيرة تجاهلته النساء في أحلامه، وبات يرى صغارًا في مهود. شهر مرَّ فحبلت زوجته، وشيء يقول له إن المولود سيأتي صبيًّا تُفتح له الفتوح، وتنبطح له الرءوس. بذلك يصارح زوجته فتمسد بطنها بحنان زهاء الساعة، وتزغرد بوهن.

مضى من فوره، كلما سنحت له الفرصة، يداعب تكويرتها المتصلبة، ويهمس مقاربًا همسه للصمت، ينصحه ويلاعبه افتراضيًّا، ويرافق رفساته بدقات أرقّ.

ساعة أحستْ بالطَلق كان الجو في هجمة الصيف، فنتح من الزير بكفيه الماء،وجعل يبلل البطن المضطرب كل دقيقة حتى أطلتِ الداية.

– اللي رزقك بالبِت يرزقك بالواد يا حسن.

نطقتها الداية في وجهه، غير آبهة بحسرته، ثم كقذيفة أطلقت الجدّة- الجالسة بتحفز- على قدميّ المولّدة جريدًا شائكًا، وانتفضت:

- يعني هو معاه عشر بنات يا بنت رجب الحرامي؟!

ولملمت ابنة رجب أذيال ثوبها وإنهاكها راكضة، وغادرت المكان دون تحصيلها لأجر أو "حلاوة المولود الجديد".

ما أجملها حينما تعلقتْ بشق جلباب الجدة وهي تحممها أول مرة، وما أبهاها حينما تبحث بفم ضيق عن حلمة الثدي الممتليء، وما أتعسها حينما يمر أبوها بقربها، غير ملتفت لبكائها أو ملاعبة يديها الصغيرتين في الهواء، ينفضها كما ينفض تراب المصاطب كلما جلس بجانبها، وإن كانت اللمسة تتحول لقدرٍ أكبر من الرفق كلما رآها تطفر بالبلوغ أمام عينيه، والأم تمكث مشاهدةً مؤمّنة، لسانها يجري بلسانه، وترى استحقاق الصغيرة للضرب كلما رأى الأب ذلك، بل تتفنن وتبغي رضاه وفُتات ما يلقيه عليها في الفراش، وإن كانت لا تعلم سببًا لذلك.

فالأب حتمًا يرى ويستبصر بأحسن ما يُتاح لبشر، يأمر ويُطاع، والعجوز تراقب ضامة عجزها بين جنبيها، تهدهد الصغيرة، وتبث الاطمئنان في بصيلات الشعر الغجرية الهفهافة.

وتعقد فيها أملًا قد يطفو على سطح الدار يوم اكتمال العقل. والطفلة تُمنع من كلام كأنه سر وعورة؛ سألت يومًا:

– يامّه هو أنا ليه معنديش زي يوسف ابن عمي؟

– اللي هو إيه يا مضروبة؟

وأشارت الصغيرة بين فخذيها، فلم تتفوه الأم، وحملتها من يدها اللينة كصقر لأنها لم تستطع جرها من شعرها، وأدخلتها الحجرة، ولم ينتهِ غضبُها إلا حينما صدمتْ الحائط بظهر الصغيرة الضعيف، وتشربت الأرض عبرات رقيقة حارة، ثم أُغلِقت الحجرة بمفتاح لحين ينظر الأب في أمرها.

وحكم الأب:

– دي تترمي هنا زي البهايم، لا مدرسة، ولا لِعب، ولا المسخرة دي كلها.

وأطاعت الأم،ونفثتِ الجدة غضبها المنسحق تحت الضعف وغزارة العُمر، أهذا صوت المرأة التي ولدته؟ وسمع، وفتح فمه ليُسكتها، ولكنه سمع كلامًا أسكته، غير أن التأنيب لم يرجعه عن قراره؛ الحجرة يعني الحجرة.

وتعودت العجوز زيارتها في محبسها وعالمها الضئيل، ورأتها يومًا تنبش الجدران برسم تعجز العقول عنه، ولما كان الصدى يتردد في الحجرة من الخارج، فقد سمعت الصغيرة خطيب مسجدهم يشرح كيف خُلق الإنسان من طين لازب.

– يعني إيه "لازب" يا جِدّة؟

– لو اعرف يا ضنايا كنت قُلت لِك!

ونظرت الفتاة فيما وراء الجدران، بل فيما وراء الدنيا بنظرتها المركزة على طلاء سقط بعضه، وتُردد "طين لازب" بشرود.

كالشبح البعيد، كان يسطع وجه الأم من الخارج لحظات ويختفي، تلقي بالنظر المخترق لخصوصيتها المقيدة، الحجرة كما هي ولباس الطفلة والانكسار، لم يتغير شيء سوى صفائح الطين التي باتت تملأ الغرفة. من أين لها بتلك الصفائح؟ أماءت الجدة بالإقرار:

– مقدرش أرفضلها طلب.

صرحت الجدة، وصمتت الأم.. صمتٌ ثقيل غاضب ينتظر عودة الأب، ونظر الأب لأمه بتوجس يتفرس الوضع، ثم التفتَ يقول للزوجة:

– سيبيها يا أم زينب؛ دول شوية طين يعني.

وتتردد الأم دائمًا على الحجرة، وترى تماثيل لرجال أشداء، وأطفال ذكور.

– سيبيها يا أم زينب.

الطفلة توقد النار في الطين الجاف، وتنشر أنفاسها الحارة فيه، بدا الأمر كما لو كان العجين يطاوع أناملها، وبدا للأم كعار ستجلبه

عقربة الدار تلك كما يرد في خاطرها وتطلق عليها دائمًا. وجسد الطفلة– في الخفاء– أصبح عودًا تلهث في إثره الألسنة. وهي تداعب بجسدها الفائر،وثمرتيّ صدرها الموشكتين على النضج،أبدان منحوتاتها، وتلتهب ضاحكة. والجدة تراقب، ولا تبارك، وفي اللحظة ذاتها لا تمانع.

– عارفة يا جدة؟ أنا هصحيهم في يوم.

والجدة، غير عابئة، تبتسم اطمئنان:

– يا ضنايا، دول طين، والطين أخرته الأرض.

– واحنا اتخلقنا من طين.

– يوه، جتك إيه يا زينب، غلبتي الخرفانة العجوزة جدتك، بس برضه الطين ده أخرته إيه؟ ده أنا مالية الصفايح دي بإيدي.

– هتشوفي.

يتعانق الظلام ليلتها بالنخيل، والأم تحبل، والولد يأتي. برغم كل شيء يأتِي. صورته على صورة الأم، لم يدرِ أن أختًا له تمكث في الجوار، إلا بعد الرابعة.

ينظر من أعقاب الباب، يرى شعرها مهوشًا فينكمش، والأم تشجعه على قهر خوفه كي يقهرها حينما يكبر ويصبح رجل الدار. والطفل الذي يتجرع الأقوال، يتراجع مذعورًا كلما رأى تمثالًا جديدًا

يحمي الباب. والصغيرة، أو التي كانت يومًا صغيرة، تضحك بمرح، والأب يندب حظَّه في ابن لين الشكيمة.

زينب وسرها الصغير،هكذا تقنع الأم نفسها دائمًا، إلا أن مخاوفها تدقُّ قلبها وتلج بلا استئذان، الأسرار الصغيرة تفجر المآسي، لا سيما إن كانت في قلب سجين، تتساءل: من أين لتلك التي لم ترَ النور، كل هذه القوة والتحمل؟ وذلك النحت الدقيق لأجساد رجولية مثيرة؟

- سيبيها يا أم زينب، دول شوية طين، هيضرونا في إيه طالما طول عمرها محبوسة؟

الطقوس التي لا تهمد في الليل تزلزل كيان الأم، وصوت الصغيرة وهي تمهمه، يؤرق ويجعل من النوم أمرًا مستحيلًا. فهمست الأم للزوج بضرورة زواج الصغيرة، وقبل الزواج يُستحب إكمال العفة بجز كتلِ لحمٍ تجرَّأ عليها السؤال وكمم الأفواه، فوافق الأب؛ والخاطب دائمًا موجود، وقد يتم الأمر في الغد.

في الصباح،كانت الحجرة فارغة إلا من الصفائح الملطخة والجلبة. والناس بالخارج يصل صوتهم بالذعر والصراخ.

داهشًا، استقبلت عينا الأب المنظر، وعيناها؛ يسمعان بين الحين والآخر أصوات نداءات مبحوحة تشق طريقها عبر الهواء الراكد. شدّت النساء ثيابهن، طِرنَ مثل الريح إلى دُورهن.

الطفلة تمشي كملكة في حماية رجال عِظام، أجسادهم خشنة وقوية، الطريق يُمهد بسهولة، والأطفال الذكور الأشداء أيضًا، يرافقون الفتيات الأخريات اللاتي مُنعن بدورهن من الحياة كحفل رقص راقٍ يتجه لقصر.

ورجال القرية جميعهم ينحنون باستسلام، فمخلوقات كهذه لا تعرف للموت معنى، وفي لحظة خاطفة تذكر الأب الحلم. وبكى، ثم انحنى لابنته يطلب الغفران. وعلى مدار أعوام حتى الآن لم يجدوا الأم.

***

بروجٌ مُشيَّدة

بكل شحذهم لحواسهم، حاولوا استيعاب أن تكون هناك جثة موضوعة في قلب السرادق، مغطاة بكفنها، وبُقعٌ حمراء دكناء تتناثر على بياضه. إنها أنفاس الحيرى تسري في الجلوس، وصوت كبير العائلة يشق السكون، يتوعد بالانتقام، إنه الدم، إنه الدم. والأب صامت.

سيتغامق الظلام بعد العشاء، والجميع في انتظار المقرئ، وأجواء العزاء تتنزل على قلوبهم بالسكينة وتنبئ -كما تفعل دائمًا- بقصَر الدهر وذهاب العُمر. إضاءة ساطعة، ووجوه منكمشة نحو الأسفل تسترجع سيرة المقتول شابًّا، وحده لاقى ما لاقى في ظلام قريب، والقاتل ينعم بحرية لا مثيل لها؛ هي ضعفين مما ينعم به بقية الناس.

لمعت عينا الأب، يحدق إلى ذهول بجسد ابنه المسجّى لا حول له ولا قوة. لا يضعف أفئدتهم جميعًا غير أن القاتل معروف، تتصاعد أنفاسه وتهبط مستمتعًا بالحياة. والصمت لا يبدد حرقة الرغبة في

الانتقام. والزناد التواق للـــ"تار" لا يجرؤ على إعمال مفعوله الآن بسبب الشُرطة.

يقولون إنه تسلل –قبيل الغروب– عبر الكَرْم، ومن هناك سمعوا طلقات تسبق صراخًا ينتزع الرعب من نفوسهم، ولما ذهبوا لم يعرفوا، أهذه حُمرة الكروم أم لون شبابه؟

في مدخل حارتهم لحوا المقرئ، يتهادى في الظلام، ولما رأوه في الضوء يندفع بجبته الكاكي ومعممًا، لم يتركوا للتوقع فرصته؛ فقد عرفوا أن الليلة هي ليلة الجنون أو الحظ. تاركين الأمر ينحسر في نهاية مأساوية. واندهش الجمع.

القاتل يقف الآن أمامهم بشحمه ولحمه وجبته وعمامته. وتحت وقع الرذاذ الخفيف الذي بدأ يتقاطر منذرًا بخيوط مطر ثقيلة، تساقطت العيون من محاجرها سقوطًا مدويًا، دويّ كل تلك الصدور التي شهقت ولهثت وطوحتها الحيرة.

وهكذا بمنتهى الجرأة والبساطة رمى بنفسه في وسطهم، شامخًا، يختال بغطرسته، يعرف أن الصدمة تكبل تهافت البنادق وجموح الأيدي.والكبير والأب يمنيان نفسيهما بالاستيقاظ من ذلك الكابوس؛ من أين له بهذا الاطمئنان؟ وكيف هو ما هو؟

والحال الفَزِع، بالرغم من ذلك، تراجع داخل الأفئدة، ثم قامت البنادق مستقيمة، تُصوَّب نحو منصة المقرئ، أياديهم تستحرم الضغط

على الزناد.. وتؤجل، واللحية التي هُذبت بعناية لم تكن لتتزحزح عن مكانها شبرًا واحدًا؛ تملؤه تباشير الاطمئنان. ومع أول اعتلاء متعجل للكرسي، أخذ يقرأ ويرتل ويجوّد في مكبر الصوت بلا توقف. وهبطت الأسلحة - من لحظتها - داخل الآباط، ثم تهامس الناس بمجرد القراءة تعجبًا، وازدردوا صمت الجلال، يلوكون آيات الله خاشعين، في جلوسهم ضراعة حامل الطير، وبدا أن مفعولًا سحريًا يسيطر، فتعمى الأنظار وتسمع القلوب وحدها. والقلب - أحيانًا - يتلفه الاطمئنان، ونشجوا. قطعًا هو ليس بمختل، وإلا فكيف يُطَوِّع ذلك الصوت الملائكي لمختل؟ أم أن فساد العقول لا علاقة له بالحناجر وبشاشة الوجه؟

الصوت يجلجل ويعذُب، فيه حلاوة الشهد كأول عهد بتذوقه، جنان تفتحت، ووجوه تنعمت باسترسال ذلك الشدو. والشيخ الذي واصل سحره، يقرأ في العيون ألف احتمال واحتمال.

أقلية هي التي بدأت تتعود الوضع وتخضع للنبرة الأخاذة في رست المقرئ ونهاونده، وكثرة هيئتهم مربدة، تشطر الحيرة والسكون ليلهم المغلوب على أمره.

مضى الرُبع الأول،وكوب الماء يفرغه في الحلق مستكينًا، والبنادق ترتفع مرة أخرى، تصوَّب نحو العمامة مباشرة، أما القلة الذين أنشؤوا يتبعونه بلا ريب،القلة التي اعتملت بها وشائج الخضوع للذات

الإلهية، قاموا وأحاطوا منصة المقرئ مدافعين، فمنهم من أمسك بنبوته، ومنهم من تراءى له أن يرفع سلاحه في الجهة المضادة، جهة الأب والكبير الذين يحثون الخَلق والأغلبية الغالبة على الأخذ بالثأر. تحلّق المتبتّلون حول المقرئ كهلال متشظي، يفتدون جبته بأعناقهم. وعمامته برءوسهم، ونهاره بليلهم.

كالملسوعين من سيخ الحديد المشتعل، تراجع ذوو الشأن والحق، وتقهقرت العقول؛ هناك ما هو أهم، القوت والأولاد، ورضا الله... قطعًا الله غالب، وفوق كل شيء، ولكن المقرئ قد يكون على حق، ما أدراهم؟

وفي وسط نظرات التعجب والاستهجان، تحرك المعمم تجاه الجثة، محاطًا بسدنته، فتجاذبته الأعين بالدهشة، وعصفت ريح التوجس عاتية، ما الذي جعله يقلّب الميت بين كفيه؟ ثم أي رقة واتته لخلع عباءته عليه ولفّه بها؟

وتحدرت الدموع الشفافة من عينيه، كبقية البشر، تتساقط من أعلى على وجه الراحل. قطعًا دموع المقرئ شفافة أيضًا. ودموع كل المخلوقات.

قابلين على مضض، ارتفع الشيخ مرة أخرى فوق منصته، يلفه هذه المرة جدار – ولو هش– من التأييد، لم يكن يحلم في أشد حالات تفاؤله به، وبقفزة واحدة كقفزة طفل، انتصب الرجل فوق الأكتاف،

يقرأ من المصحف بخفوت، ومرة أخرى يرتل، ويستفزهم للترديد وراءه، ولكز الكتلة التي تحمله كي يدوروا وسط المُعَزين، وفعلًا داروا كما يحدث في الموالد وطهور الأحداث، والصوت يحرك المطر، والمطر يتهيأ لليلة طويلة ومهمة ثقيلة على وشك الوقوع، والدنيا لم تعد مظلمة كما كانت، بل هناك شيء يتبدل وأحوال تتغير، ودموع تقفز من مكامنها، وتقريبًا على نفس الوضع، بدأ الصِوان يرتعش نحيبًا، وفقط كانت تلك نقطة الانطلاق.

وهكذا ترك الرجل نفسه لعنان الآذان المنغمسة في سحره، يتقرب بها إلي. وبسلاح العادة، انهزمت الأفئدة، وبدأت تفتر الهمم عن الحق.. الحق الذي رأوه الآن أقل حتى من المطالبة به، فقط تتراقص القلوب شجنًا وطربًا وولعًا بكلمات الله.

وبدا الأمر، مع قذائف المطر الثقيلة، كقصة يدور فيها الشيخ بأحلام النائمين مبشرًا إياهم بالجنة، وبالصوت العذب تم له ما تم، وسُحِق المنطق، فقط بصوت.

الكبير الذي توعد بالانتقام منذ لحظات، يصرخ الآن منتحبًا، غفرانك يا رب، سبحانك يا رب. وسقط عند يدي المقرئ يقبلهما، والأفق الذي كان مشحونًا بدفقة العصبية والثأر، تحين منه الآن الأحزان والروحانية مع بزوغ الفجر، يستبطئ القمر إمساك المطر. واستغاث الكبير بجميع الأولياء ليلتها، ثم دفع الأب كي يفعل مثله، فالله غالب قادر على العذاب أيضًا، كمقدرته على الرحمة.

وتذكر الناس مع ختام القراءة، ومع آية مخصصة لتلك المواقف، تذكروا ما هم فيه من بروج مشيدة، وكيف أن الموت قادر على التحليق إلى الحد الذي يخطف فيه ولو كنت بجانب العرش.

ما جعل المشهد أسطوريًّا هو خروج القاتل من العزاء، تتلهف ثغور الجميع على تقبيل يديه وتتمسح، وحينما عرضوا عليه المال نظير إحياء الليلة، نظر لهم جميعًا، وقال يودعهم وهو يبكي بحرقة:

– والله ما من أجل المال أتيتُ.

***

حيـنمـا يُهادِن الموتُ

إنه الهول بعينه. الهول ذاته.

كان غريبًا وهي القريةُ المعتادةُ على عجائبِ ما تحمله النجوم كل ليلة، أن تستلم خبر بعث سمير الراوي –آخر أمواتها– بعد ستة أشهرٍ من اختطاف الموت لهُ. كأن القبورُ أنبتته ووهبتْهُ الحياةَ مرة أخرى بأقصَى ما يمكن أن تدبَّ في جسدٍ، كما سُلبت منه بأقسى ما يمكن السلب .

ورُغم لها شهدت عوداتٍ أسطورية كتلك لأحياءٍ ظنوهم أمواتًا بعد يوم أو يومين، إلّا أن الفجوة الزمنية التي سبقت ظهور الراوي، صبغتْ بعثه بهالةٍ بالغة القدسية .

القمر يرتمي في أحضان الليل.

والصدمة حتمًا أفجعت أبا حسني، بائع الفاكهة وأول الرائين، فطعنت الدهشة قلبه، حتى أردته صريعًا، بعدَ أن مضى غروب يومه يدلل على ما هو طازج وملون في عربته.

لو لَم يَكُنْ رآهُ زين العابد، حارس القبور، المشهود له بالأمانة – قبل أن يلّم به المرض– ينتفض من أسفل قبره، ولَولا مكُوث سمية الشرقاوي زوجة الراوي، بجانبه أيامه الأربعون الأُول على خِرقة بجانب قبره، ولو لم تكن آثار الطعنات الناهشة في لحمه ما زالتْ تَنِزُّ دمًا؛ لقُلْنا: ثمة تدبيرٍ خبيثٍ يحيق بتلك الأعجوبة!

قالوا إنّ شعره كان مضروبًا بالشيب، يتعمق في عينيه فراغٌ غائر كالبئر حينما مثل ساهمًا أمام من رأوه من أهل قريتنا: الصيرفية. ولرحمة الإله، أهم لم يكونوا كثرة.

لم تنقطع الزغاريد والزِّجل عن مترل سمير الراوي من حينه، ولم يعلم أحد لَمَ لَم تزغرد سُمية يومَها؟ بل ارتمت ينهشها سيلان الدموع عند قدميه، وتشهق :

– سامحني.

سمية التي نامت بجواره، حتى بعد موته، تبدو وكأنها الآن تجرع الصدأ من إناء نتن.

شكهم فيها كقاتلة تطاير في التقاء نظراقم؛ ما دفعه لتوضيح الأمر ودحض الاتمام عنها بعد أن أقسَمَ، وهو ما حداها للبكاء أكثر. ثم رفع رأسها بابتسامة باهتة مستسلمًا يقول:

– سامَحتُكِ.

لم يلبث يومه الأول بعد الإحياء ينقضي، إلا وكانت الأسئلة تنهال على داره. ومع ذلك، ورغم الأعراس التي فجَّرهَا والدته في كل ركن مظلم وزريبة وفدَّان، نقلت إحدى جاراتها للأخريات، وهي ترتشف سيرتها مع شاي الصباح الثقيل، أن أمه لا تطيق وجوده معها وحدهما في أي مكان.

حتى في سقيفة الدار التي طالما لاعبته فيها صغيرًا، لأنه كل مساء -على حد قولها – يظل يهمهم، شاخصًا لجدران الدار المتشققة، وكأن حبال الوصل ما زالت ممدودة بين عالمنا وعالمه الذي أتى منه.

وفيما يحل الصفاء على دارهما، كانت الأسئلة ما زالت تترصد تلك الظاهرة.

لا لم يكن من بينها "لماذا عاد الراوي؟" فتلك النوعية من الأسئلة، دائمًا ما تكون مشوبة بكل أطوار العار، وإلا فأين حُسن إكرام الضيف من كل مآثر الصيرفية؟.

ولما كان ذلك كله يتعدى حقيقة حسن ضيافة، فإن الرهبة كانت تتلبس كل قدم تمر مسرعة بجانب المبعوث الجديد، وهو جالس تحت سنديانته السامقة، بعدما تعوَّدَ أن يتأملَ في ريحِها منذ قدومه، وتعودتْ هي أن ترمي بمديد ظلها عليه بحنو يتجلى ناصعًا للمارين .

رهبة يلحقها الفضول المُثار من دموعه التي يذرفها باستمرار قبيل الغروب، وقد لاحظ البعض مدى ما تفرّع بدن السنديانة الوارف،

منذ رواها بدموعه بعد خمسة أشهر، ومدى ما تلتئم طعنات جسده النافذة تحتها، ومدى ما ذبلت سمية المليحة القسمات، ونتوء عظام وجنتيها، كمصدات الريح، من حين أطلّ.

في اليوم ذاته، كان الوقت يدق بالغروب تمامًا في أبواق المسجد، وانطلق صوت الإمام ينبه المصلين: سمير الراوي سيجيب عن أسئلتكم بعض أسبوعين!

وكعادة الصيرفية كان الترقب يتواتر بمسرى ليلها، مع عبور الحكايات المختلفة الشبيهة باتساع الخُضرة في حقولها .

حان الوقت، وتجمع الناس حول المسجد مثل يوم الحشر، يومها أشرقت الشمس كسيرة الضوء، ثم بدا للناظرين وهو يخطو فوق المنبر كأنه يطير بأجنحة نبتت له.

أهذا حقًا سمير بن الراوي الذي كان يقسم الخلق بغلظة طبعه وقسوة نظرته؟ كيف استحالت إلى وداعة تنبثق كما الزهاد؟ وكيف حمل البياض فوق رأسه هكذا؟

يومها تحدث ونشج كثيرًا وأجاب، ووقفوا طويلًا أمام قوله عن الجحيم، وكيف أننا لسنا بحاجة للموت حتى نعتقد في صدق وجود الجحيم من عدمه، واختتم بقوله

– الجحيم فينا، الجحيم فينا.

خيّم الصمتُ، وخُيّل إليهم أنه قد كفّ عن الحديث .

ولكن حين سُئلَ عن الموتى، بكى وشهق حتى نفذت أنفاسه خلال السماء، وبحرقة قال :

– تعتقدون أن الموتى مجبرون على البقاء هناك؟ "وأشار حيث تنام القبور"، إنهم يملكون حرية العودة إليكم، إلا إنهم فضّلوا ما هم عليه.

وانتظر ريثما يبتلعون صدمتهم، حتى يجيب على ما استبقاه من أسئلة في النهاية، وفضل عدم الإفصاح عن هوية قاتله.

وسرحت دمعتين تحت عينيه. وتساءل الحشد عن أسماء الموتى في الستة أشهر الماضية، حتما القاتل بينهم .

أكمل بترجٍ :

– لو أتعبكم السؤال، فالقاتل سيبعث هو الآخر كي يطلب السماح، فسامحوه، بحق جاه الرسول، سامحوه.

يقول ذلك، فيصدقونه، ويعدونه، ثم ينتظرون.

غاصت القرية في الهدوء أكثر، بعدها، رحل سمير الراوي مرة أخرى، وفي أيامه الأخيرة تعوّد أن ينظر لشجرته كثيرًا تحت شبورة الصباح، يتنفس غبار البواكير السابح في الأفق، ثم غادر ووجهه مطمور بتحنان ما قبل الموت. ذهب وترك الأمر ينازع العقول بأن الموت ما هو إلا هدنة ثم تُستكمل المعركة. وبعد رحيله بيومين، لمح

زين العابد، حارس القبور، قبرًا ينتفض أسفل شاهده مرة أخرى، فضحك ساخرًا سخرية التعوّد حتى اختنق، وكتم ضحكه حينما أدرك أن هذا القبر يواري "عزيز"، المتوفّى شابًّا عن عشرين ربيعًا، ابتلعته الترعة منذ شهرين، وقد بُعثَ هو الآخر يثقل قدميه طول الرقاد. يبكي ويناجي: سامحوني. ثم حالما ركض الراكضون تجاه صوت البكاء، كان هناك، يجثو تحت أغصان السنديانة متخذًا تلك الوضعية: عريانًا، مقرفصًا قبالتها، يفرغ ما يُلهب قضيبه المنتصب في تجويف رآه فيها. بدا أنه يفعل ما يفعل دونما إرادة منه أو رغبة.

***

ثُغاء

وقف أمامي بحاجبيه الكثيفين وقال:

- قبضتي هي قصرك، وجنتك ناري، فارمِ نفسك في ناري؛ تجد الجنة.

دائمًا ما حاول زرع شيءٍ بداخلي لم أتبينه، شيء بحجم مارد تقريبًا، ومع كل التحذيرات التي كان يلقيها كورد من آيات الفجر، صاحبني شيء أحسست بثقل وجوده على ظهري طوال الوقت. وفي الآونة الأخيرة اكتسبتُ قدرة ضئيلة على القفز، وشيئًا فشيئًا، أحسست بروحي تهفو للطيران،وحينما هممت بفرد جناحيّ الوليدين، سبقتني لطمة من يده انسابت من وجهي نحو قلبي..

- أتريد الطيران، وتشمت بنا من يسوى ومن لا يسوى؟

وحينما هربت منه ذات يوم لذنب لم أفعله إلى الحظيرة، وسط العنزات، أخذ يبحث عني، يركز نظره وسطهن، عنزة عنزة، رتبتُ

أمرى، اختبأت حينها وراء كومة القش، لم يلحظ وجودي بعدها، ووضع يده على إحداهن وبغلظة تساءل :

– هذه أخر واحدة؛ فأين ذهب هذا العاق؟

ثم أغلق بوابة الحظيرة، ومع الوقت أحسست بصوتي يتحول تدريجيًا إلى ما يشبه الحشرجة والرنين الرتيب، ومن حينها لم أسمع صوته يبكي بالنداء عليّ في دور الأقارب أو الموالد كما يفعل الآباء، بل في المرة الأولى التي فتح فيها باب الحظيرة، بعد عامين تقريبًا، كان معه رجل آخر، وأدار رأسه بابتسام يبحث عن بضاعة جيدة، ونظر إلى الرجل بجانبه وقال:

– هذه عترة جيدة .

وكان يشير إليّ.

***

روح النجوم

بكاميراتنا نقترب..

نضبطها جيدًا فنرصد:

أشباح تحركها مصائرها فتبهت ظلالها شيئًا يسيرًا على الحوائط، والأسفلت الخالي من السيارات يغزو أطرافه غبار يغمر الرصيف، والمارة، والليل.

يُقال في الإظلام إننا نتجه لدواخلنا بشكل أعمق. ويُقال أيضًا إن النجوم هي من تمدُّ خيوط الهمس الخفي تلك، حتى لكأنك تشعر بضميرك يتواصل بتتابع قدري بالبشر أجمعين.

ولعل تعذر النظر هذا إلى الخارج، وحديث النجوم هما ما جعلا سيدة من أولئك المارة لا تنتبه لفجوة في الرصيف انعدم التواصل بينها وبين قدمها، فانزلقت وانثنت ركبتها خلال سقوطها المريع، فتَبِعَه

صراخ ينبه قوالب الأحجار المترامية قبل أن يخترق قلوب الآخرين فيقفون على مصدر الصوت متسائلين:

- أنتِ بخير؟

يلهثُ بعض الشبان، يسارع أحدهم بطلب كرسي، وآخر كسر الحلقة المحيطة بها بيسر قبل التحذير من عاقبة تحريك مفصل واحد من مفاصلها حتى وصول الإسعاف.

يزعق:

- أنا طبيب.. أنا طبيب .

كانت الظلال والمارة يحاولون جاهدين للالتفاف حولها، ولعلنا نلاحظ أن فردًا لم يتشابه معهم، يقف صامتًا، فيظهر اختلافه الطفيف عنهم بقربه بضع خطوات فقط من السيدة.

تربت يده على كتفها بجمود وكأنما يحاول - باذلًا كل قدرته- ألا تحين منه أي حركة تدل على هويته.

- أنا زوجها. بجزع يلوي فمه في وجوه الشبان.

هذه الارتعاشة في جفنه، واختلال شفتيه والقفز فوق الكلمات المسجونة لا تدل إلا على القلق.

النجوم تفسرها فتقول:

خوف. لكننا لا نوافقها هذه المرة. نسمعها ونهادنها، لكننا نظنها ارتعاشة قلق شديد، وشدته تدفع الرجل ألا يظهره. والقلق بطبيعة الأحوال قد يكون ماذا؟.. حبًّا؟ ربما..

لكن القلق قد يصاحبه عِظَم المسئولية أيضًا، وليس الحب وحده، الأمر الذي يلجمنا في كثير من الأحيان عن الحديث إزاء الحياة بالقوانين والثوابت.

وكما أن القلق مسئولية، فصخب الزوج في الجوال مستدعيًا الإسعاف يغذي الخوف البادي على وجهه. الآن النجوم قد تكون محقة جزئيًا. ولكن مهلًا، ها هو يعود فيفرك كتفها ويربت برتابة، لكن ليس بالعمق المطلوب في لحظة كتلك. غير أنه، وعلى أي حال، يحاول قدر جَهدِه على تتابعات مشهدية مدروسة. حتى لِيُخيل للواقف أن هناك رقيبًا بالداخل، أو في صدور المشاهدين، يمنعه من ضم يدها، أو احتضانها حتى، كلما أنّت أو ندت عنها غمغمة استغاثة.

هو- على نقيض ما اعتقد البعض- عاد إلى الانثناء بجانبها، وضم اختلاجة أسى على وجهه إلى وجهها دون ملامسة، الأمر الذي يعوزه الكثير رمي حصوات الملح في أعين الواقفين، ورمي الجمرات على مقام ماضيه كي يتسنى له الاستسلام لنداء قلبه.

كيف وعينا النداء؟ إنها النجوم تدري بكل شيء.

ترصدها عدساتنا بوضوح

لو سمح الليل بإزاحة بعض الغشاوة عن ماضيه، والبوح الصريح للنجوم، لانفجرت أطنان من الصور واللقطات المارقة في عقله عن الرجال الذين سمعهم يشمئزون من خيبة المحبين. رجال رابطوا كجنود أو إن صح التعبير كفرقة قناصة، يصطادون مرور الحب حتى بين قلب الرجل وامرأته.

أبوه كان من هؤلاء الرجال؛ لو رأى زوجًا يهم باحتضان زوجته على شاطئ أو يقرر فقط أن يتأبط ذراعها؛ لانبرى بصوته الخشن يلقي بكل اتهامات الهوان اللاحقة بمن سماهم "مخنثي هذه المدينة ."

– إحنا في زمن الخنافس.

صغيرًا كان، وطريًّا، حينما اصطادت أذنه ذلك الانطباع. لذلك حينما تلقفته أمه وألقته بين ذراعيها مذعورة يوم بكى من ألم اصطدام رأسه بشيش الشرفة، تشنج ورأى ما يماثل الخزي في أعين المجتمعين من جيرانه الذين أتوا للاطمئنان، رغم كون النظرات انطباعات متباينة، لا انطباع مفرد.

لكن الأذى الذي لاحقه من ضمة كتلك عادَلَ قدر احتياجه إلى الغوص في صدرها أكثر وأكثر. إنه لا يذكر أيًّا من هذا الآن، هو فقط يعمل بموجبه وإن كان شيئًا غائمًا يستحثه لرفض الاستجابة لنبضة عابرة تمر في جل جسده، أو لنقُل دفقة سارية الشوق تجاه امرأته.

أيكون ارتخاء مفاصله، وتمتمته بين الحين والآخر بكلمات اطمئنان خجلانة تكفي لتغطية الوجع؟هو في نفسه يدرك أن الانفعالات المفتعلة لا تروي استمرار زيجة امتدت إلى اليوم منذ عشر سنوات.

حتى النبات الذابل قد يقف لأعوام، وهو يقاصي شُحَّ المياه لكنه لا يستمر. نحن راصدون فقط وهذه مهمتنا، لذلك نظن أن قلب الرجل – حينما غصنا فيه أكثر– كان حقيقيًّا ومشعًا. ومثلما هو الحال مع قلبه والزمن ينساب مسرعًا، فإن نبضتين أو أكثر مرَّتا بداخل الرجل وامرأته في اللحظة الزمانية نفسها. نعرف ذلك من علو صدرهما وهبوطهما، حتى الأعين تلاقت في اللمحة ذاتها. إنه لا يدرك أن بعض الأعين استقرت ظنونها الآن أنهما عاشقان، عصفوران، طائرا ماندرين، ويبدو أنها– السيدة– لا تعي أي مما يحدث خارج عالمها المسكون بالصراخ والسخط على كل المسئولين الحاطين بمكيفات الهواء في مكاتبهم، ومؤخراتهم تزداد اتساعًا وشحمًا على الكراسي الجلدية. لكن بالنسبة إلينا في الليل، الصورة لا تتضح تمامًا خاصة بعد تأخر سيارة الإسعاف، ولكنها حينما جاءت، بعد خمس عشرة دقيقة تقريبًا من الاتصالات وأسئلة الاطمئنان، وانكفاء الرجل على قدميه خائرًا، صفرتْ من بعيد برأسها المنير الطواف..

(وي وا وي وا)

وما إن سمعتْها السيدة انفجرتْ بالألم والتأوُّه كأنها احتفظت بهما إلى تلك اللحظة، فتبدلت الخطوط المتعرجة على جانبي عينيه.

إلا أننا نشعر بأثير ينطلق من النجوم نحو صدر الرجل..

ترى ما الذي هُمِس به في تلك اللمحة المضيئة؟

بمجرد انتهاء رجال الإسعاف من المعاينة، وكأنه غير قادر على اتخاذ قراره، فإنه ما إن صعد على متنها وبقي وحده مع زوجته – كان هذا قبل أن يلحظ أحد من المسعفين ما فعله –أغلق باب السيارة الخلفي عليهما وحدهما لثانيتين.

مجرد ثانيتين، انطلقت فيهما نداءات الشجب واتهامات الغباء مِن قِبَل المارة والمسعفين على الرجل. لكن عدساتنا المنتبهة دائمًا وأبدًا، لم تلحظ هذا إلى حَدٍّ كبير، لم ترصد ما حدث على مدار ثانيتين، رغم أنها معدلة تمامًا لجعل الصور والمشاهد أبطأ وأبطأ. وللأمانة فنحن فضلنا أن نحفظ لتلك اللحظة قدسيتها وعلوها. يكفينا – حينما انفتح الباب– تلك النظرة المتفاجئة، الممتنة جدًّا من السيدة إلى عيني زوجها اللتين ينطفئ فيهما ببطء شيءٌ كان متوهجًا لثانيتين. شيء بذله من روح النجوم الغابرة.

***

رسالة إلى ولدي

أمسك بقلمه الجاف وشرع يكتب في ورقة فضّها بعد طي طويل..

" إلى ولدي..

لقد قررتُ الكتابة لك منذ رأيتك على شاشات الأطباء نطفة تهفو إلى الحياة، ولكني فضلتُ الانتظار إلى حين تتعقل ما سأرسل لك، أو أتعقل أنا، كيلا تمطرك توجيهاتي في أول الطريق، وكيلا أمارس دورًا واعظًا لا يليق بي، فقد اشتقت يا ولدي أن أجالسك كصديق، يقص عليك فتسمع، لا ليأمر فتطيع. وقد قررتُ ما قررت، لا لأني حظيت بتفضيل الزمن وأتيت مبكرًا إلى الدنيا عنك، ولا لأن الحياة جعلتك سائل أبيض في ظهري؛ بل هو محض اشتياق يا ولدي إلى الحكايات التي خلفها الزمن في تاريخ البشر، فإن عزمتَ استكمال ما رغبتُ في البوح به.. فدعني أقُلْ لك، أحكي لك، وأنت لم تزل هذا الصغير الذي تساوره الحياة بشكوكها.

خُلق العالم ليحتمل الأخطاء فلا تقسُ على نفسك ..

ستجد أناسًا يعبدون الأبقار أو الشمس أو القمر أو حتى الناس.. فلا تبتئس، أعلم أني – آسفًا– سعيتُ لإيهامك باكتمال الخلاص في دين الآباء والأجداد. قلتُ الدين أولى، رغم وجود من تختلف فكرته عن معتقداتك التي حشوتُ – عن عمد– بها رأسك النقي.. ولمحض المصادفة، قد تكون صحيحة، أتصدق؟

هناك من هو صحيح غيرنا !

نعم لا تتعجب، خطيئتي في تلك الجزئية هي عدم التوضيح، فلا تؤاخذني.

وإن ضللتَ الطريق فلا تخف، فكل الطرق ضالة..

والبشر كذلك..

إذن عليك أن تختار أكثر الطرق الضالةِ هدايةً، وإن سألتني عن ماهيته فسأقول أنه موحش، غير مكدس أو مُقَدَّس، ستستوحش فيه السير وحدك، وستنعق فوق رأسك الغربان وتزلُّ قدمك في الشَّرَك الذي وضعه الناس للوحوش، إلا إنك في النهاية ستهتدي وستظل مُثقَلًا بما اهتديتَ إليه، وسيسير على دربك واضعو العلامات.. وقد تصبح يا بني معبد هذا الزمان بعدما بلغ كرههم لك أقصاه ..

وقد ينحتون لك التماثيل، ويهدمونها.

هل أضللتك؟

ليس بالمعنى الحرفي؛ لقد دللتك فقط على كثير من الحلم، وقليل من العمل، وكان مثيرًا أن تراني أدفعك بسرعة إلى مقود الحياة، غير أني لم أعرف معنى لقيادها قط، لقد قضيتُ حياتي ألهث سعيًا وراء القمة والمال، لكن ماذا الآن؟ حينها ستدرك أنه تحتم عليك أن تخوض تجربتك الخاصة، تجربتك التي ستغدو واضحة بقدر جهلي بما تستطيع – أنت– تحقيقه، وبقدر الساعات التي قضيتها أحلم ولا أعمل."

تحدرت دمعتان على خديه وأكمل:

"حينما لحقتْ أمي بأبي إلى مكان لا يزال غامضًا في السماء بعده بعامين، وحينما رسبتُ أول مرة، وحينما لم أحصل على ما تمنيته من وظيفة وحياة كريمة، تأكد لديّ أن الحياة ما هي إلا ثمرة نواها الموت، ستظل تقضم حتى يموت شيء بداخلك، إلى أن تعلم أن عالمًا، ليس في هذه الحياة، يحمل كل القضايا الصحيحة، ولا أدري إن كان ذلك التصور عن الحياة تشريفًا لها أم إهانة؟ وإن وجِد، فإني لا أعلم كثيرًا عن ذلك العالم الآخر، ولكنني أؤمن بشيء ما قد يحدث بعد الموت، شيء يريك الحقيقة كاملة، ويبدو أن القواعد في الكون هكذا دائمًا؛ يجب أن يموت شيء بداخلك حتى ترى بوضوح أكبر.

هنا يا ولدي وفي تلك اللحظة الغارقة في الصراحة لن أخجل وسأعترف:

لقد بدا لي شبابي خاليًا من الجنون الطفولي والمغامرات وألاعيب الصبا؛ فأنا الآن وقد غدوت على أبواب الستين، يستهويني أن أكون شجاعًا ومرحًا ومتوقدًا، بعدما أدركت أن الخجل واصطناع الوقار شيئان لم ينتج عنهما أي أمر جيد، ولذلك في تلك الأيام، يمكنني التفسير لنفسي أن ذلك الميل هو وليد الرغبة الحارقة في التعويض.

فلا تضيع الفُرص.

أتعلم؟ أنا أبكي أيضًا كلما حاوطتني الظنون والظروف والعزلة والإرهاق من الإمساك بالمسئوليات بذراعين أوشكا على الانفصال. الرجل ليس كما أوهمتك فيما سبق من طفولتك، الرجل ليس قويًا، ولا ضعيفًا، إنما هو إنسان ولا يهم أن يبكي أو يمسك دموعه طالما كان صادقًا في تعبيره عما يشعر. الرجال الأسطوريون لا وجود لهم في هذه الحياة البائسة يا ولدي، وإلا فإن أي محاولة لمواجهة الحياة بذلك الوجه المصطبغ بالصرامة، فهي مجازفة وانتحار قبل أن تكون زيفًا يسكنك، ويمتص منك الحيوية إلى ما لا نهاية."

ارتعشت يداه:

"وأخيرًا سامحني، فأفكاري مشتتة؛ ولم أعد أنام بالقدر الكافي، ففي بدايات العَجَز يستعصي على الإنسان النوم ملئ جفنيه، وتأتيه الأحلام بما لا يرغب.

أصبت بخيبة أمل عظيمة؛ إذ توقعت أن أنام الليلة خمس ساعات كاملة، فقط خمس ساعات، إلا إن لليل ألاعيبه الخاصة، وأحاديثه المدفونة في تقلباته التي لا تنتهي. ربما طغى عليّ شعور بالضيق من نفسي؛ وأصبحت الصور والجدران تضيق وتضيق إلى أن حطمتْ ما يمكن تحطيمه وتركت فيّ صورًا رهيبة تدعو للرثاء ..

سأنتظر يا ولدي، حتى وإن قرأتَ ما خطته يداي في آخر أيام عُمري .

هذا بحر الدنيا يا بني فإن أردت أن تشرع في العوم فلك ما أردت، وعلى كل حال لن يلومك؛ فابن حرام من لم يجرب."

أتم الشاب ذو العشرين عامًا كتابة تلك الرسالة، ووضعها في قميص أبيه علّه يقرؤها إذا سنحت له الفرصة، ويوجهها إليه أحد الأيام.

***

في غـاية الوهن

أتذكر حين واتتني تلك اللحظة جيدًا، كنت ابن عشرة تحديدًا..

وكنت قد التهمتُ ملامحه كاملةً، بوهن وفزع، حينما سحبتْ يده المتشققة - بحذر- جرار حقيبة والدتي المعلقة على كتفها، وتشعبت الخواطر إلى صور مخيفة.

في الصباح، وفي التاسعة تحديدًا، ابتلع الزحام على طريق القطارات- العاري من التحذيرات وموانع المرور- خلقًا كثيرين، بشرًا مكدسين يمرون بعرض السبيل الوحيدة تجاه الناحية الأخرى، القضبان تحمل الأقدام، وحرارة الأنفاس تجابه شمسًا تحدق في شرود..

أتذكر أني كنت أتبعها بإلحاحي كلما توجهتني بنظرها، أقسمتُ حينها أن الأمور ستتحول للأسوأ إن لم أحصل على أقلام كثيرة بألوان عدة، وأغلفة وجلادات من النوع الفاخر، بغية الزهو والتفاخر لا أكثر. لكن، وفي الفجالة سيصبح هاجسك الوحيد أن تحصل على ما تستطيع يداك الوصول إليه، وألا يلطمك العطش، وأن تحن عليك

بعض المباني الشاهقة بظلٍّ كيما تواصل البحث والتنقيب عن اللوازم المكتبية.

وتبدأ السيدات بالفصال المرير، الفصال الذي قد لا ينقطع إلا مع هبوط قيمة المستَهلَك إلى النصف، أو حتى إلى حين تبدأ الفترة الدراسية، لا مشكلة في ذلك.

وكن يضعن النظارات ويترعنها، ويقلبن بين أيديهن أشياء قد لا تُشتَرى، وأمي تشري البضاعة مبتسمة وراضية بقليل مال.

ولما رأتني لا أحتمل الجوع والعطش والزحام، قنعتْ بما تحصلتْ عليه، ولم يعد بمقدوري الإلحاح أكثر، وانتحت ركنًا نتناول فيه عصيرًا معلبًا، ومخبوزًا صنعته بيديها. واستولى مشهد وجهها المتفصد عرقًا، وثغرها يلوك الطعام في غاية الوهن، على كياني كليًّا.. ولكنها ما كادت تنهي القضمة الأولى من قطعتها، حتى أعلنت الشبع؛ وأغلب الظن أنها استبقتها لبقايا جوع قد يجر أذياله على معدتي ولا يندثر بقطعة واحدة.

قفلنا راجعين، وأمي تحمل التعب، وبضع أكياس بلاستيكية ممتلئة تهتز بخفة بين يديها. وحقيبتها الوحيدة على كتفها، تحمل حلمها بالوصول وانتهاء اليوم.

وفي خضم الأشياء التي تبهت حولنا، على نفس القضبان التي لا تزال مشتعلة بجدائل الشمس، وفي لحظة فاصلة..

حدث كل شيء.

استلمت عيناي مشهد سحبه لجرار الحقيبة المعلقة على كتفها بخضوع، أصابعه تتشنج وتنقبض، شعر أشعث ونظرة ميتة جافة، ورأسه العالي الذي أناخه التوجس، أراه يلهث، ويراقب الناس، ولكنه نسي أن يراني أنا؛ القصير القامة، الضعيف الحيلة، الذي أراقبه، ولا تعلم بشأنه أمي.

كتمت خوفي الصاخب.. لم أهجم عليه ولم أوبخه، لم أجد حتى كلمة تحمل شجبي وإدانتي لما يحدث، فيما كانت مهمته قد قطعت المسافة إلى نصفها، ورآني فجأة.

كالملدوغ تراجع، وراح يسحب أنفاسه اللاهبة، بدلًا من الجرار بعيدًا عنها وعني، وحين انتهى العبور المتأزم، لاحظتْ هي اصفرار وجهي المجهد، وخمود الكلمات التي صدئت في الحلق.. وعرفت السبب من بضع كلمات وإشارات.

قامت بتهدئتي، ووضعت بضع رشفات من الماء على شفتي، وتوجهت بنظرها إلى حيث كنا فعرفتْه بإشارة مني، وصدري ما زال يعدو تجاه الانفلات.

أعرفها جيدًا، فهي لا تترك حقها، لذا أدركت أنها ستركض وراءه، ولو تطلب الأمر سفرها إلى نهاية العالم. وشجاعةً فعلتْ، بعدما تركت الأكياس بجانبي.

العجيب في الأمر، ومن تدابير الأقدار، أنه لم يستطع التزحزح هاربًا من كتلة الناس المصمتة حوله، فتصلب كجعران، وراح يبعد الناس عن طريقه، في غاية الوهن؛ لم يكن قويًّا إلى الحد الذي يسمح له بالعبور والهروب. وفي ثانية كانت أمامه، وهو أمامها.. لا يفصل بينهما سوى رافد نحيل من الهواء، ينظران إلى بعضهما بلغة لا أفهم رموزها، أحملق بعيني المترقبتين مخافة أن يؤذيها، أقدم قَدَمًا وأؤخر أخرى..

ولكنها توجهت بنظرها تجاه جرار الحقيبة، وفتحته، ثم أخرجت قطعة المخبوز المتبقية وأعطته إياها مبتسمة بحنان، الأمر الذي شجعه على مد يده وتناولها منها. نظر إليها طويلًا كأنه يحدق بالفراغ، حينها قضم، ومضغ الأولى بسرعة ليلحقها بثانية. أكل بنهم حتى شبع.. وتساقطت قطرات اللعاب على ملابسه الرثة..

وتركها وهو يمشي مطوحًا، بلا كلمة شكر..

وتراجعت نحوي مبتسمة.أتساءل وأزيح عرق الخوف عن جبهتي، أستبين ألغاز ما حدث، وقبل أن تشتِتُّ الحيرة بالقلب..

انتصبتْ أمامي فرِحَة، وقالتْ باطمئنان:

- أرأيت؟ كان جائعًا فقط.

وعُدنا بسلام.

انشطار الطير

الأحلامُ لا يَتمُّ تفصيلُها حَسَب الطلب، ولا يَتِمُّ الإفصاحُ عنها مهما تلحّ عليكَ بالبوح. أدركت ذلك يوم رأيت فيما يرى الذاهب عقله أن جسدي ثقيل كجوال من الحجارة، الطَرقُ يأتيني نافذًا من الخارج يخترق القلب. لم أدرِ من الطارق، ولا ماهيته، إلا حينما انفلت منه تنبيه كحمحمة لفرس مُتعَب. فتحتُ فوجدته كهلًا، يرتجف متنهدًا بغير ارتياح، شَعْثُ لحيته يوحي بدوام اختلائه بالوحدة. إلا أن البريق المنبعث من مظهره المهيب لا يغادر الذهن ولو في النوم.

- لي مُبتغًى لا أسأل سواك فيه!

قالها بعد أن ضم إليه حول جسده المفتول رغم ذبوله، عباءته الجوخ البنيّة، ولم أعلم لَمَ هي جوخ بالتحديد، الأمر مُختلطٌ في الحُلم. والأحلام صحو مُختلّ.

- أي مبتغى؟

- حمامتك البيضاء!

تقلصتُ داخلي لائذًا بالإنكار. فصار يبتسم بتوسع أكثر بعد أن اختفت معالم هرِمه. وقال:

- وهل يُرفض طلبٌ لمن هم مثلي؟

- من أنت؟ !

- حمامتك ستنضم كرابع لطيوري !

دققتُ في وجهه متشككًا، حينها لم تزل بسمة قَلِقَة تغالبُ ثغرَه .

بتسارع الدقات في صدري، سقطتُ من حينها في وادٍ ناءٍ، طاردني - لبرهة- واقع كواقع الأحلام، ولكنه أكثر قوة وأجلى يقينًا، علمتُ أني استيقظتُ من نومي.

لاحقني طوال يومي ما ارتأيتُ، حتى بعد المشاق والمحاولة المستميتة للنسيان وعدم الشرود، ومحاولة استجلاء إن كنت فعلًا أمتلك حمامة بيضاء أم لا، رغم ما أنا عليه من تأكد أني لم أُرَبِّ الحمام قط. وفي الليلة التالية،رُحتُ إلى أروقة الحلم ذاته،كانت الأمطار تندفع جدائلها بجوار المنزل، إنه ليس منزلي، رغم ما بدا عليه أنه منزلي، الباب ذاته، والأثاث هو من الداخل، كل شيء يشبهه. يقف هو بلحيته وعباءته في مكانه لا يبرحه، منتظرًا الإجابة، ومشاهد الأشياء قد بدأت تتوازن تدريجيًا..

- انظر!

نبهني مشيرًا إلى ثلاثة أنواع من الطيور،وكان واضحًا أنهم يتبغونه بلا ريب، طاووس زاهٍ، وغراب قاتم، ودجاجة معتقة، يأتون وراءه مجتمعين كالمأمورين .

- تنقصهم حمامتك!

- الخلاف ذاته مرة أخرى؟

لا أدري فعلًا إن كانت تلك الحمامة لدي، ثم أي حمامة؟

- أي حمامة؟

- سأريك ..

حينها وضع يده على رأسي وراح يتمتم بكلمات واضعًا يده الأخرى على رأسه، هنا أحسست بالثقل يجذبه من جبهتي، جناحان نابضان يرفرفان، وحمامة يفوق بياضها الحليب، قد تولدت في يده مخرجًا إياها من العدم. وقد استقرت في يده وادعة مستكينة.

- أرأيت؟ كانت لديك .

- من أنت؟

- ألم تعرف إلى الآن؟

بعد السؤال أشار إلي لأتبعه، انزعجت أول الأمر، حتى فتت الفضول لدي أي رغبة في المكوث ثابتًا هنا فترة طويلة؛ وعندما ركضتُ وراءه مناديًا، أنشأ صوتي يرتد وكأنه اصطدم بجدار صلب.

شعرتُ تجاهه برضا مشوب بالنفور، لَمِ لا يوضح ما أراه من عجائب؟ وشعرت في ذاتيّ بشخوص عدة تثير حنقي وفضولي في آن.. التفتُّ إليه فإذا به يطالعني بعد الوقوف في مفترق جبال عدة. صاح بي من بعيد :

– تعالَ !

وقبل أن أمضي قُدمًا، لاحظت الشمس وقد ارتفعت تزأر في السماء، بلا حرارة، بلا أدنى درجة من الحرارة، ثم وضع الطيور أمامه، ودعاهن بأسماء لا قِبل لي بها، حتى تحركن سعيًا تجاهه، لَمَ لَم يطرن؟

وبلا مقدمات، أعملَ فيهن سكينه بضرواة، يقطعهن إربًا، ينظرن إليه باستسلام كأنهن يشتقن للذبح، ثم خلط ريشهن ولحمهن في خليط كادت تقتلني رائحته،أما الرءوس فقد ضمَّها إليه داخل عباءته.

تأكّد لي ما دار في خلدي؛ إنه هو. يحتاج فقط ليثبت إيمانه !

استنبطتُ ذلك بكل بساطة، وكأنه حدث عابر يحدث لي يوميًا، كم من شخص رأيته بحاجة لإثبات إيمانه؟ ثم إنه هو؛ لماذا يحتاج لإثبات إيمانه؟

وبرغم ذلك سألتُ :

– سيُبعَثن مرة أخرى؟

توجه ناحيتي، ونظر إليّ نظرته التي تنطفئ فيها كل رغبة في السؤال، لم يكن صارمًا بقدر ما كان تائهًا. هتف :

– بنا لننشر ما بين أيدينا على تلك الجبال .

استسلمتُ لتحديجه فيّ باستمرار، وفي ظل تكاثف خوفي، رأيتني أذعن لأمره،كما انساقت هي للذبح. وكما استسلمتُ لتلك الرائحة النتنة .

– رائحتها نتنة!

– ستدلنا على الحقيقة رغم ذلك.

لم أفهم مقصده، وصرت تابعًا في حلمي الخاص، لا لم يكن حلمًا، كان حقيقة، أظن أنه حلم، رباه أين أنا؟

انتشرتْ في صدري تأوُّهات الضيق والملل، لم أكن تابعًا في حياتي، هل هذا باحث حقًا أم رجل غلبه الجنون؟ كنت عند سفح الجبل الأول، يلازمنا الصمت لفترات طويلة، حتى وإن تفوه فإنه يتكلم

باقتضاب الاقتضاب، يتحاشى أي فرصة للتوضيح. وحينما بلغ مني اليأس مبلغ التبرم الداعي للانفجار صرختُ:

– لم تحرقك النيران، تحتاج يقينًا أكبر من هذا؟

– تموت كل يوم، ثم تستيقظ، وبرغم ذلك تحتاج إلى اليقين .

ردّ بهدوء قاتل وأكمل:

– لا يتعلق الأمر باليقين، اليقين مرادف للاعوجاج. الأمر عائد إلى الاستقامة بالشك .

– عجيب !

– يحتاج مثلي للشك، كي يستقيم الشك به. ومن ثَمَّ شكوك بقية البشر.

لم ألحظ على وجهه أي انفعال، اللهم إلا تحرك شفتيه برتابة، كأنه يعرف مسبَقًا ما سألقي على مسامعه. وحينما قال آخر ما قال؛ انقسمتِ الخواطر داخلي إلى متضادين يتنازعان؛ أولهما يريد الاستمرار بكل كيانه متفحصًا ما ستؤدي إليه النهاية، والآخر بات يكره النوم ككرهه للاستيقاظ. على أي حال، فالنوم كالموت، لا مفر منه.

إنها أشجار كافور، تصنع طُرُقًا بين الجبال، لماذا أشجار كافور بالتحديد؟ لَم لا تكون سنديانة أو بلوطًا؟ لم أرَ في حياتي شجرة كافور واحدة. ولكن هذه، بكل التأكيد، شجرة كافور .

وحده يقف بين الشجر، لا يزال ينثر القطع وقد انتشر نفاذ رائحتها بين الشِّعَاب. والشمس تتهيأ لتفسح مجالًا للمغيب.

– في الميقات!

قالها، ولم ينظر إليّ، أعطاني كيسًا من القماش، هي ليست برائحة، إنها الموت ذاته، لو قُيض لي تخيُّل الجحيم، لقلت أنها رائحته .

– سننثر هذا هناك .

أشار لجبل ناءٍ نَصِلُ إليه بمسيرة دهر كامل.

أريد الانتهاء من هذا كله، وكأنه بات مصيري الذي التصقَ بمنامي، أتبعه تجاه الجبل، نمشي بسرعة فائقة لأننا في لحظة كنا قد تجاوزنا نصف المسافة. وكان بين الفينة والأخرى يُلقي برأسه ونظراته بين الشمس التي قطعت نصف المسافة نحو الأفول، وبين النجوم التي ستعلن عن نفسها بقوة بعد قليل، مزيج رائع من النجوم بجانب الشمس أراه للمرة الأولى .

– أرباب متفرقون هؤلاء الذين اختلط عليّ أمرهم في شبابي.

كنت مندهشًا، ليس لـِمَا قال فحسب، بل لأنه ألقى خيطًا للحديث لأول مرة.

وجدتها فرصة لأسأله عما دار في ذهني طيلة حياتي:

– هل كنت ستذبحه فعلًا؟

– انظرْ جيدًا؛ النجوم جميلة الليلة!

– أجبني من فضلك .

– لا أعلم، ربما!

– ولدك؟ من أجل حلم؟

– من أجل الله.

– كنت ستظنه حقًّا يتركك تذبحه؟

– لا أعلم .

– لا تعلم، لا تعلم، من يعلم؟

– لا أحد..

نظر دامعًا نحو النجوم :

– لا أخفيك سِرًّا، لقد اخترت سكينًا ثلمًا .

– أنت تركته وأمه في الصحراء!

– تركتهم لله!

– أسلمت أمرك كله لله، وتسعى الآن لطمأنة فؤادك؟

– كلنا يسعى، إنها وجهة واحدة، ألا تدرك ذلك؟ أنا وأنت في الصف ذاته، نجابه الحياة بحثًا عن جوهرها. رغم ذلك فإني لا أدّعي البراءة. ولكنني بدأت؛ فقد حطمتهم جميعًا بفأس.

وصلنا من حينها إلى قمة الجبل، ونثرنا ما نثرنا فوقه، ثم هبطنا منتظرين الشروق القادم، لم يفارق قولُه رأسي الذي بات كفقاعة كبيرة على وشك الانفجار، وربما تمنيتُ أن تنفجر.

ولما أمسك بالرءوس بين يديه ملتقطًا إياها من عباءته، وضعها أرضًا، ثم راح يذرع حولها صانعًا دائرة، ونادى بالأسماء ذاتها التي استدعاها بها أول مرة،واستعصى عليّ حفظها هذه المرة أيضًا. وعندما سمعتُ الريح تصفّر انكمشتُ وراء ثباته الذي لم يتزعزع، وأدركتُ أنه مجرد صوت ومشهد يتم نسجه من الداخل، الطيور لا تتجمع، ما زالت متفرقة. يزداد توتره. يتمتم ويحرك يديه في الهواء. لا تستجيب له أي إشارة.

كان قد بدأ في الهتاف. تلفظ بالتمائم بنبرة أقوى. استشاط فيّ غضبًا:

- حمامتك فاسدة.

- ليس ذنبي.

جريت وكنت أتعثر، سألته من أي طريق أرجع؟

- ستعرف حينما يغالبك الصمت، منتصرًا على الرغبة الدائمة في الحديث .

لحظتها استيقظتُ، ولعنت اليقظة بكل أركانها، لعنتُ الجفون والواقع، وكل عامل يساعد على إيقاظي. إلى أن سمعتُ صوتَ طَرقٍ واهن. لم أدرِ من الطارق، ولا ماهيته، إلا حينما انفلت منه تنبيه كحمحمة لفرس مُتعَب. فتحتُ فوجدته كهلًا، يرتجف متنهدًا بغير ارتياح.

***

الريش كعَرَض جانبي

يستيقظ كل يوم فلا يتخيل أن يراها نائمة على مبعدة منه، رغم نصائح الأطباء أن يبقى بعيدًا، وإلا تحول إلى طائر.

يقول له صديقه ذو الخبرة الواسعة إن الأطباء لهم آراؤهم التي لا تؤدي ولا تجلب، لكنها رغم ذلك- تلك النصيحة بالذات- سديدة. وبرغم أنه ذات يوم رأى ريشًا ينبت تحت ذقنه لم يلحظه أحد، وبرغم أن الجناحين اللذَين خبَّأهما بإحكام المعطف حول كتفيه وظهره، فقد أبى إلا أن يظل متدفئًا بصوت أنفاسها، وأبت النبوءة إلا أن تتحقق ويستمر جيشانه المُرهق.

ذات ليل قرر الاقتراب منها أكثر من اللازم، لم يُبال فوضع يده فوق رأسه ومال نحو جبهتها يطبع لثمًا هنا وهناك..

ولما أحستْ، تململت إلى الجهة الأخرى، وبصوت ناعس:

- ريشك؟

– ماله؟

– يشوِّك بشرتي.

ابتعَدَ بروية.

– دعني أنام. أكملتْ.

وهو، إلى اليوم، لا يزال أهل المدينة يسمعون العقبان تحوّم حول عشه.

***

هدير المُحرِّك

الكوابيس تمرُّ من هنا، من ممر تلك الليلة الملعونة. أي جنون هذا الذي دفعني لتذكرها؟ والآن؟! بعد عشر سنوات؟!

الغريب، ليلتها، أن هدير محرك تلك السيارة بالخارج، لم يأتني إلا واهنًا في آخره،فيما معناه أنها سيارة فارهة، وأنا في تلك القرية النائية، خاصة في مناوباتي الليلية، لم يسعني –وعلى امتداد ثلاثة أشهر– إلا أن آنس إلى صوت الكلاب تحشد أصواتها في مواجهة الليل، ولدغات البعوض،ورجل تحرقه محاولات الحصول على قرص ترامادول، والأهم صوت شخير "زينب" الممرضة الوحيدة في استقبال الطوارئ.

ثم ما لبث أن تحول ذلك المشهد الهادئ نسبيًّا إلى صخب ولعنات؛ رجل تبعثرت ربطة عنقه، تتدلى من بين يديه طفلة، كانت تتشنج أول الأمر، باتت فجأة خامدة كالعجين.

يهرول الرجل نحوي كرعب تمثّل في جسد زرى به السفر، وامرأة بصعوبةٍ تحملها قدماها؛تغالب التعثر،وانهمار الدموع يصبغها بالسواد.

لم تكن محاولاتها لتدفئة يديّ الطفلة تؤتي ثمارها،ولكنني- بحكم المهنة- أدرك تلك اللحظة جيدًا، لحظة التمسك بدفء الأمل.

- ساعدنا !

لم تَقُلْها بل نشجتها، والرجل يقف مذهولًا،يمد الطفلة بيديه نحوي :

- افعل شيئًا! إنها تضيع منّا أرجوك، إنها تضيع.

كان يقولها وقورًا وإن كان يدحر دموعه دحرًا يليق بشاربه، وبذلته الأنيقة .

مع الفحص المتاح تبين أنها تعاني "فرط الحساسية"، وهو تفاعل يطبق فيه جهاز المناعة بضراوة على خلايا في الجسد لم يكن له حق التعرض لها فيما سبق، فيسبب لها الضرر.

عرفت فيما بعد من والديها، وبسؤالهما عما مرّ من أحداث لها خلال اليوم؛ أين ذهبت الطفلة؟ وماذا أكلت؟ أفادا أنهما، كعائلة تستجم آخر الأسبوع، قد تناولوا وجبة عشاء مكونة من سلطة السرطان البحري في القرية السياحية التي تبعد قرابة ثمانين كيلومترًا، والطفلة قبل التشنج كانت قد هيأت للتقيؤ لكنها لم تستطع. أصبح الوقت أمامي ضئيلًا، وجدران الاستقبال - التي لم أرها قط أكثر من وحدة تفتقر للتجهيزات- قد بدأت تتسع جدرانها، مخفي في طياتها محقن "الإبينيفرين" الوحيد القادر على إنقاذها، وأن رحلة البحث عنه قد تستغرق يومين حتى نجده بين المخلفات والعلاجات المتاحة.

أيقظتُ "زينب" وأمرتها بالبحث الفوري، فيما سأقوم بفتح ممر هواء الطفلة التي، ولا بد، ستختنق بعد دقائق قليلة إن لم أفعل. في تلك الأثناء دخل رجل آخر تبدو عليه السمات العادية للأهالي هنا؛ الملابس الرثة، والعمامة التي تحنطت من فرط الاتساخ، والوجه الجامد ذو التعابير المُقَنَّعة،وامرأة لم تقلّ عن حاله بؤسًا، تُسرع وراءه، تنسدل على الأرض،متدفقة بالألم والرعب، قبل أن تحبو صوب قدمي لتتهيأ لتقبيلها،وطفلة بين يديها تنازعُ شبحًا في حلقومها، والرجل الرث الهيئة يخرج من جيبه سيجارة، يبدأ في إشعالها. الشره يدخنها بتلذذ، بعد أن جلس مقرفصًا عند الزاوية بعيدًا .

- لا تولولي يا ست، البنت زينة .

قال الرجل بلامبالاة، فيما لم تلتفت له المرأة التي استمرت في الانحناء مبللة حذائي بلعابها .

- بنتي، بنتي يا دكتور، أغثني .

الحسد في هذا الأمر محض هراء، تجمد الهدوء للحظات.

قبران يترصداني من بعيد، والموت يحوم أسود بين حمامتين بيضاوين أشرفتا على المغادرة إلى العالم الآخر. فالطفلة الثانية أتتني ملدوغة من نحلة؛ تعاني بدورها أيضًا "فرط الحساسية."

أعلم أن اليد قد تقصر عن الحيلة، لكن ليس هذا الحد المتدني للحضيض؛ جهاز التنفس الصناعي لا يعمل، حتى لو تم إصلاحه فإنه يحتاج أضعاف وقته كي يتم تعقيم أنابيبه، وتنقية وتغيير مصافيه.

البالطو الأبيض يبعد احتمالية أن يحتاط الناس منك، بل يسمح لهم بتأليهك وتوسيد الأمر كله إليك.. وزينب، أين زينب؟

كان وقع خطواها وهي آتية من المخزن يعمل على إيقاع القلب، يطن النبض في أذني، وهي تجري نحوي بمحقن، هو الوحيد المتاح حاليًّا .

جسدان ومحقن واحد .

في البداية انقطع ذلك النشيج المتطاير بين الأُمَّين، تتطلعان إلى طوق النجاة. ثم حينما هتفتْ زينب من بعيد :

– آخر واحد موجود هنا.

بدا أول الأمر أن كلتيهما لا تفهمان ما يحدث، وحينما تبدد الضباب عن الأذهان أدركتا أن واحدة ستنام الليلة بين ذراعي أمها، والأخرى ستستقبلها الجنة عروسًا تُرَتَّل في رحيلها أناشيد الطفولة. حتمًا هذا سيحدث .

الوالدتان تنظران إلى بعضهما البعض بأسى، والرجل المتأنق، يرجوني بسرعة التصرف ووضع السن الشافي في عضل ابنته.

- البنت بنتي، زهرتي، ستقطع النفس يا أستاذ .

قالت المرأة المغلوب على أمرها ببكاء يفطر النخيل المهتز في الخارج بفعل الهواء الزاعق.

- وابنتي، أتركها للموت؟ !

تساءل الرجل المتأنق.

أما الأم الأخرى فاختفت وراء شارب زوجها، ومعطفه، والبكاء يحدوها لانفلات الآهات.

- أرجوك يا دكتور، أنا من البلد هنا. أنت تعرفني .

لم أكن أرى سوى الأضواء التي تفضح رطوبة المكان، وتكويها بانبعاث الفقر وقلة الحيلة، ودخان ذلك المتنطع. لا، يمكنني رؤية شيء آخر، الموت أراه بتلك الهيئة لأول مرة، الموت يمكث هناك على مقربة من الفتاتين، يضع يديه على رأسيهما مبتسمًا بخبث، يأمرني بالاختيار.

- المال، سأُرضيكِ بالمال !

قال الغني للمرأة بنشيج متقطع، وأم الطفلة المهندمة لا تستطيع النطق، أتوقع ألا تستطيع أي أم - جربت أن تحمل نطفة تشربت روحها- أن تنطق بكلمة في هذا الموقف اللعين.

- وابنتك بكم يا أستاذ؟

سألت المرأة قبل أن تدفن أنفها الجاري في ملابس ابنتها. هنا انتفض الرجل ذو الجلباب المعتق برائحة دخانه، وعدّل من وضع عمامته ثم سأل :

- تدفع كم يا أستاذ؟

وأشعل سيجارة أخرى .

- ما تريده، لكن أسرع أرجوك، ابنتي تضيع .

- لاااااا. صرخت الوالدتان معًا .

لطم الفلاح زوجته، وأمرها بعدم النطق، وإلا فإنها ستلحق بابنتها.

- إنها نذير شؤم عليّ وعليك، من يوم أتت، وقرش واحد لم يدخل جيبي .

قال الرجل المعمم، واختطف ابنته من يد زوجته،وأمسك بها بقوة .

وقبل أن يمضي الرجل المتأنق على إيصال استرداد حياة ابنته. وقبل أن يغمس الآخر يده في قلب ابنته وروحها.

خطفت "الشيك" من يده ومزّقته.

قمت أيضًا بخطف الطفلة نظيفة المظهر من يد أمها،وضربت المحقن في فخذها، قبل أن تستقر ضربات قلبي معها .

وانقضت دقيقة أخرى، لم أدرِ ما حدث فيها، سوى العتمة تلفُّ المكان رغم الضوء، وصوت امرأة تهد الأرض بجسدها. ورجل تطلع للمال، فتبخر من بين يديه.أضمُّ الطفلتين إلى صدري. بعد قليل، كان الفلاح يحدجني بذهول، ذهول الفقد، وامرأة استكانت هامدة، فاقدة الوعي على الأرض، ورجل يجر زوجته من يدها إلى الخارج، يقطعها الحزن ويشقيها أن ترى أمًا فقدتْ. وطفلة بين يديها قد بدأت في الإفاقة، بعد فتح ممر هوائها لدقائق.

بعد ثوانٍ كنت قد جلستُ مسترخيًا، يقلبني صمت الليل، فيما أتابع الصوت الوحيد الذي شقه: صوت هدير المحرك يبتعد .

والآن بعد عشر سنوات، ما زال الهدير يقرض رأسي.

ويمنع النوم عني.

***

زائرةُ اللَّيل

سيكون لافتًا أن ترى جسدك وهو يهوي على الفراش متهيئًا لحلم عابر، كانت أمارات الظلام ستُريح جفنيك بعد يوم حافل بالمشاق. ولكن، ليلتها أتتك من المجهول. ملاك. خاضعة لك وتعترف بخجلها الكاذب. أعياك تحديد ملامحها أول الأمر، حسبتَها تهبط من عالم خاص ليس كعالمنا، إلا أن جدائلها الشقراء المختلطة بصمت انبعاث القمر زادتْك رغبة ونشوة، وانحناءات جسدها تخبرك بعظمة من خلق ذلك الجسد وراء الثوب الأبيض، ولولا تمنُّعك وبعض من تصنُّع الخُلُقِ؛ لشربت من حمرة خديها بلهفة عطشى افترستها الصحراء .

الوجه متورد، والعينان زرقاوان مرهقتان، يا لهذا الجمال!

حتمًا ستنسيك لمسة يدها الطرية أن تسأل من أين جاءت؟ ولِمَ؟ يتحتم عليك أن تنسى، يكفيك أن تقف هي الآن هنا بكل ذلك الحشد من الإثارة والجنون، تدرك أن السؤال قد يسرق قدسية اللحظة، ويجعل الأمر يبدو وكأنه خرافة، بعد أن بدأتَ الاعتياد عليه.

تسنى لها البدء في إشعال الأمر، الخطوة الأولى حانتْ منها وليس منك، اقتربتْ أكثر، وبعد الإمساك الرقيق لمعصمك،ذُبتَ كمن يسبح في بركان ..

- تعالَ معي!

لم تملكْ من الأمر شيئًا، بعد أن ضمّتْ يدك المرتعشة تحت إبطها الأيمن، تحديدًا وراء نهدها المشدود لأعلى،تصببتَ عرقًا حينما لامستَه عن عمد ووجدتَه لينًا. وقبل أن تبتسم هي مرحًا، راحت قوة قاهرة تجذبك للالتصاق بجسدها، ولم تمانع هي ذلك، بل باركتْه ولم ترَ في ذلك عائقًا، حتى جعلت اللحظة غارقة حتى الثمالة في أمواج من متعة لم تعُد تشعر معها بالإثم.

سحبتْ كرسيّ المكتب الذي طالما احتوى عملك، ثم أجلستْك بهدوء انثنى معه جذعها، والتقت فيه نظراتك بصدرها المكشوف، وأنهتْ ذلك المشهد، المدروس بعناية، بجلوسها على فخذيك .

أي لهيب هذا الذي لسعك؟

لا بد أنك أدركت ذلك قبل أن يحدث.

لكن سيلهيك انفجار العرق وانغراس ردفيها المتكئَين عليك من ملاحظة أنها سحبت ورقة من مجموعة الأوراق التي خصصتَها لرسائل حب ترسلها لخطيبتك "يمنى" بعد أن اشترتها هدية لك. ستشعر

بالتأكيد بمرارة وقسوة، لكنك ستكمل، لا تستطيع أن تسمع أي صوت آخر، إلا صوتها، وصوت "يُمنى" يأتِي خافتًا في صداها. وربما صوت مُهمَلٌ يؤنبك .

– اكتبْ لي !

رنّت أنفاسها الحارة في عظامك تفتتها، جعلتك تستدعي ملامح خيانتك للحب، وستتذكر صديقًا لك قال يومًا: أن الحب الحقيقي حريٌّ به أن يهدئ من روعك، ولم تكن تشعر الآن أن روعك سيهدأ على امتداد حياتك بأي حال إن فعلتَ شيئًا تندم على إضاعة الوفاء فيه، وستدرك ساعتها أنك وفيّ لأنه لم تُتَح لك فرصة الخيانة بعد، ذلك أن ظلام الهروب من الأسئلة المُقبضة يسمح لك دائمًا أن تعيش سعيدًا أو لا مُباليًا. ولن تعرف حينها هل تحب أم تحتسي الجنون في كأس التخفي وراء حبك؟

– من أينَ جئتِ بحق الإله؟

– أنا فيك!

ستقطع الكلام بمداعبة صدرها الثخين في ذراعك، وتراقب النبض الحائر فيك بلا اهتداء، الحائر بلا قدرة على استحداث أي شعور جديد تبددها به.

ثم ستضمُّ رأسك المُتعب بين ذراعيها مأوىً دافئًا لك، هل غصت فيها؟ هل غاصت فيك؟ أم امتزجتما وشرعتَ تمشي على حناياها كقوس يستعذب ألحان كمانه؟

الورقة باتت مفضوضة أمامك، ترقُب وجهها مطمئنًا، لا يُقلقك شيء.. لماذا إذن تتبدى صورة يمنى كلما هممتَ بالكتابة؟

- اكتب لي!

لو تتوقف فقط عن إلحاحها كنقيق الضفادع..ستجعل يدك تكتب كغيمة ألح عليها الهطول :

- أتمنى أن أراكِ كل يوم.

ستصرِّح لها بلا تفكير.

ستهلل هي فرحًا، وتجذبك بعنف. عنف الرغبة التي اِستعرَتْـها من جذوة استبطانك لخفايا نفسها ونفسك. ثم قبل أن تستسلم هي تمامًا، ستدفعها إلى الفراش بلا أدنى جهد .

الإلتحام الجسدي إما أن يكون ضربًا من الجنون، أو لا شيء.. هكذا حدثتْك نفسك، ثم قررتَ أن تسير وِفق حديثها.

قطعًا لم يأتِك ذلك الخاطر الخاص بالروح؛ هذا لأنك أولًا كنت تلهث وراء الزمن تتحين لحظة صوفية لا تتبدى، ولا تسمع لحنًا خاصًا في الأمر سوى اصطكاك الجلد بالجلد، وثانيًا لأن انجلاء طيف

يمنى، في ركن الحجرة، ترقبكما صامتة من بعيد، قد أوقف الزمن بالفعل.

ستتبين هذه المرة صوتها يُناديك، صوت يمنى، كان من الوضوح بحيث عجزتَ عن الرد، ثم ستحاول شفتاك الفكاك من شفتي زائرتك الليلية المرصوصة حول كيانك .

– خيال، هي خيال لا تلتفت إليها، قبّلني بعنف. تقول الزائرة لك.

– لا، أنتِ الطيف!

– أنا؟! أنا فيكِ!

سحبت يدك من ثدييها المكورين كالعجين. نزلتَ من الفراش، وأضأتَ ضوء الغرفة، ما زالت "يمنى" جالسة في ركن الحجرة، لا ترتسم أية مرارة أو فظاظة على وجهها. ثمة شيءٌ آخر؛ بسمة كأنها استهلال لشيء أو تلاشي شيء. حين نظرتَ وراءك، اختفت الشقراء كفقاعة صابون، توارت لمعتها وراء الرذاذ العطري، وحين ألقيت النظر أمامك كانت يمنى قد لحقت بها .

ستتساءل عما حدث متعجبًا، رغم اقتناعك التام بأنه نسج خيالك، ثم ستنام لا تبالي بالحدث، بعد أن تتذكر أن مذاق زائرتك الليلة لم يشبه أي مذاق لإحداهن سابقًا، ولن يشبه قطعًا حضور إحداهن لاحقًا.

في الصباح، كأي يوم آخر، ستهاتف خطيبتك، وتتفقان على لقاءٍ في الظهيرة، ستشعر برغبة عارمة لابتياع الورد لها، بنفسجي كما تحبه هي دائمًا، ولن تعرف حينئذٍ هل ابتعتَه إذعانًا لنداء العطاء لديك، أم لأن ضباب الذنب ما زال يعكر صباحك؟

السيارات تمرُّ، ويمنى يتراكم الظل وراءها حين لمحتَها آتية من بعيد. الورد الأبيض المفضل لديك، زاهيًا في يدها. حين واجهتْك تمامًا، ستتبرم محاولًا إخفاء ذلك وتختنق قليلًا، ساعيًا للهروب من أسئلة اطمئنانها عليك. سيُكبِّل التبسم على فمك، أنت تختنق بالفعل.

حتى حينما ستترلقان في الحديث داخل ذلك المطعم الهادئ، ستظل تسأل نفسك :

لِمَ اشترت يمنى ذلك الورد الأبيض لي اليوم؟

***

شمسٌ بعيدةٌ.. وقُبلة

ظَلّ ممسكًا بالمرآة يتطلع إلى وجهه المجعد، وفمه الأجوف، ثم تعجب خلوه من الأسنان، رغم أنه —على أقل تقدير– فقدها جميعها منذ ما يقرب من السنوات الخمس. لكنه وهو يستعيد كل شيء؛ كيف أن أنابيب المحاليل والقياس قد غُرِست بقسوة في جلده الرقيق، وأن عليه من فترة لأخرى وضع قناع الأكسجين كي يعيش أيامًا قليلة أخرى، شرع كل ما في العالم يدهشه فجأة؛ الممرضات وكيف يذرعن الغرف بنشاط، والأطباء الذين يراعون أدق الحركات في كشف جسده الهش، وحرارة الشمس اللاسعة رغم بعدها، وعدم قيام أي من أبنائه بزيارته حتى ولو من باب الشفقة، واستعادة ذكرى زواجه وحكيها لنفسه عدة مرات في الليل، والبكاء الكثير، وفمه الخالي.

في الصباح السابق، بعد أن استيقظ، ارتدى خُفّه وخرج إلى صالة منزله بعينين ناعستين، وراح يعدل من صورة زوجته كما يفعل كل صباح حتى وإن كانت في وضعها المناسب وسط الحائط. وقبل أن

يدلف باب حمّامه، شعر بانقباضة عنيفة في صدره وكأنه صُدم لتوه من مقطورة، وسقط على الأرض. من حسن الحظ أن طارق، جاره في الطابق الأعلى، حديث الزواج، كان مارًا بالقرب من بابه، وسمع ارتطام جسد بالداخل، فاقتحم بعد محاولات عدة لكسر الباب. الأمر الذي يقر به طارق حتى الآن أن لكل شيء سببًا وتوقيتًا، ويقر به العجوز أيضًا.

لم يرَ خلال الثلاث دقائق الأُوَل من استفاقته داخل حجرة العناية المركزة سوى وجه عفاف الممرضة المختصة بحالته، لم يلحظ الغرفة، ولا مجسات الصدر، ولا عروقًا جديدة تخترق ذراعه، فقط وجهها الذي أخذ يلف به الدنيا ويرجع إلى عينيها العسليتين وشفتيها اللتين تلاعبان قطعة العلكة بمرح .

خلال الأيام الثلاثة حتى الآن لم يشعر بالرقاد يجثم على كيانه، ولا تؤرقه التقرحات المحتملة أسفل ظهره، بسبب الفاتنة التي تطمئن عليه من وقت لآخر، وربما لزيارة طارق له كل يوم وإن كانت لا تتعدى الدقائق القليلة..

قليلة ولكنها غالية جدًا.

وكان طبيعيًّا أن ينتظر عفاف بلهفة، وكان طبيعيًا أيضًا أن يشعر بالغثيان كلما رأى حسنية كبيرة الممرضات تصرخ في هذه وتؤنّب هذا، وتفتعل المشكلات مع ذلك وتلك. وهكذا كانت حالها معه

أيضًا؛ تهم بتعنيفه كلما قام على قدميه، وتشير للسرير بعصبية حتى يرتدع ولا يفعل أي شيء إلا بإذنها. خالطته الوحدة أكثر، وإن كان يداعب عفاف في الرائحة والغادية، بل بعد ذلك بأيام قلائل لم يعد يتورع عن قرص فخذها كلما اقتربت منه تجس النبض في رسغ ضعيف وجلد رقيق نافر بالأوردة، فتضحك وهي تضرب يده، وتترك الغرفة، تميل في مشيتها أمامه بضحكة أكثر سحرًا:

- يا شقي!

فتدعه مشتعلًا وتمضي .

- موكوسة. أنا عارف سموها عفاف على إيه دي؟

استيقظ مبكرًا كعادته، ولم تكن حسنية موجودة، قام على قدمين أرخاهما الركود، فمضى يزيحهما، واحتضن رحابة العالم والشمس البعيدة من النافذة منشرحًا. لم يطُل تمنيه المعتاد؛ إذ عانقه الصباح بوجهها المضيء، تبتسم وتتبختر في الخطو نحوه بالدواء والطعام. في العادة تدخل إليه في حركة وئيدة تتجسد فيها كامل أنوثتها، ولكنها اليوم تهوي بقدميها على الأرض منتشية مسرعة، تحمل بشارة على وجهها .

أعطته ورقة، وقالت :

- آه يا نِمس؛ بيقولوا في الاستقبال جات واحدة، تقول للقمر قوم وأنا أقعد مكانك، سابت الورقة دي ومشيت .

وأخفضت صوتها بغنج وخبث في آخر ثلاث كلمات. وانفجرت ضاحكة.

حينما طالع وجهها مستفهمًا، فض الورقة وقرأ ما فيها:

"أنتظرك في الحديقة قبالة المستشفى كل يوم في الثانية ظهرًا.

قُبلاتي ."

وكان الإمضاء في النهاية بقبلة مطبوعة بأحمر شفاه فاتح.

أراد أن يخفي استثارته وخجله، لكن وجهه اندلع بالاحمرار، وضرب قلبه بعنف، فأجلسته على حافة الفراش. وخرجت تكتم الضحك .

ثمة شيء غير عادي كان يستشعره في ملابسات تلك الرسالة، وأغرقه التساؤل، هل هي له حقًا؟ هل تهزأ به عفاف؟ أم أنها أخطأت طريقها من مريض آخر إليه؟

- بقيت مُراهق وبيترموا تحت رجليك يا عبد الحميد فجأة؟

وبعد محاولات عدة جرب أن يستبين فيها سخرية الزمن منه، لم يجد مبررًا من إرسال "واحدة زي القمر" رسالة له، ولام نفسه التي تعجز حتى عن تهدئته، ولام الزمن الذي قوّس ظهره وجعله أضحوكة

أمام عقارب الساعة وجهاز قياس النبض الذي يخاف دقات صفيره الرتيبة. وفي النهاية استقرَّ على أنها قد تكون لأي مريض آخر هنا، عدا هو، ولم ينم ليلتها.

مر يومان،وجاءت الرسالة مرة أخرى،أخرجتها عفاف من صدرها وقالت :

– سِيدي يا سِيدي، بقينا مش ملاحقين .

فتحها وقرأ متلهفًا :

"عزيزي عبد الحميد، ما زلت أنتظرك. قبلاتي الحارة".

واختُتِمت الرسالة كسابقتها.غير أنه أحس الخدر والحرارة يسريان في جسده أكثر.

ولما همّت بالوقوف مستندة على كتفه تقرأ معه الرسالة، وتفرقع باللبان في أذنه، التفت إليها غاضبًا، وعنفها، إذ لا يقبل أن تهزأ به طفلة من دور أحفاده، وإلا بلّغ عنها حسنية والإدارة.

لحظتها أغرقت الأرض بدموعها، وأقسمت ألا علاقة لها بالأمر، وأن مهمتها فقط راحة المرضى، وقبّلت قدميه، ورجته ألا يفعل لأنها صدقًا لا تعرف شيئًا عن الموضوع، هي معنية فقط بتوصيل الرسائل، ويمكنه السؤال عن ذلك في الاستقبال .

لا يعلم لَمَ أحسَّ بنبرة الصدق في حديثها، فتأسف وراح يربت على كتفها حتى انتصبت أمامه، ولما استوت قرصها في فخذها عابثًا، فصرخت ضاحكة وهي تركض نحو الخارج تمسح دموعها .

استطلع أصيل الشمس وغروبها مستغرقًا، وذلك التأهب الذي شَبَّ فيه. هو لا ينفر منه، فقط لا يقدر على استيعابه ولا الإحاطة بما تخبئه السنون، سبعون عامًا لا تكفي لحل ألغاز تبدو بسيطة في الحياة .

صحا هذه المرة فرحان، والنشاط يدب في أوصال عظامه المنحنية، يراقب العصافير وهي تتنقل قفزًا وسط الأغصان، والشمس الموشكة على توسط السماء، بعيدة هي وساطعة، كما الدنيا.

ولما تذكّر المؤازرات والبوح والائتناس والمودة في هذا المكان، أتته عفاف ضاحكة،كما هي دائمًا، فاحتضنها طويلًا وبكى، ومضى يحكي لها عن حكاياته، أعوام غزيرة صبَّها مرة واحدة بلا توقف، وهي تستمع باهتمام وإقبال.. ولما توقف، أطرق نحو الأرض، ثم طلب مساعدتها في أن تحضر له قميصًا نظيفًا، وبنطالًا. وأن تُيسر له الخروج مدة ثلاث ساعات لا أكثر.. لكنها صرحت أن في مقدورها الحصول على ملابس نظيفة له، لكنها لا تستطيع أبدًا إزاحة حسنية من طريقها وإلا قطعت عيشها. كما أنها لا تجرؤ على التضحية برزقها في سبيله.

– آه أنا باحبك زي أبويا.. بس ده ميمنعش إني خايفة.

خايفة عليّ وعليك.

ولما جاءت حسنية أنشأ يتوسل إليها كعبد لترحمه وتتركه يتنفس بعض الهواء، وعزّ عليه لحظتها أن يتركه طارق لأسبوع دون سؤال، أقله كان انتشله لحظات من هذا السجن.

- شوية، هَاشمّ شوية هوا بس وهرجع على طول.

ولما رفضتْ ورسمتْ وجه التجهم والصرامة أمامه، لأنه لم يكمل الشهر، عقد ذراعيه كطفل حزين، وجلس يتهيأ للبكاء على حافة الفراش. حينها حضرت عفاف وقامت بتدليله ومسح دموعه المتوارية خلف تعاريج وجهه.

طَلَب منها أن تتحسس له الوضع؛ تذهب لتراها دون سابق معرفة، ويرسمها في خياله بعينيها. وافقت، ولما عادت بأمارات الخيبة لأنها لم تستطع التعرف على واحدة من نساء كُثُر لهم نفس الهيئة تقريبًا التي تصفها القصاصات، لم يثقل عليها، والتف تحت غطائه محزونًا.

في اليوم التالي، لم يستطع الانتظار عندما تنامى إلى سمعه أن حسنية أصابها مرضٌ اليوم ولن تحضر، أو تطب بأسنانها الكريهة - كما يصفها دائمًا - على موعده المنتظر، راقص عفاف فرحًا، استسمحها وطمأنها.

- لو قلتلك زي البُمب مش هتصدقي.

وافقت على جزع. وراح يزرر قميصه كشاب في موعده الأول، مشط شعره، نحت ذقنه بعناية، وأمسك بعكازه متفاخرًا. ثم نثرت عليه عفاف بعض العطر.

- ساعة واحدة، متتأخرش بالله عليك.

تطمئن لأن الطريق بين الحديقة والمشفى لا تمر به السيارات .

في ساحة الاستقبال بالأسفل، تكمن آخر محطات الخطر؛ حارسان كأسدي قصر النيل. حينما مرّ، ألقى بالسلام كأن لا شيء غير طبيعي يحدث، وخرج أخيرًا .

لو استطاع الركض لفعل. لكنه يغالب أصلًا الحذاء الذي يلبسه، وسمع - متوقعًا - صوتًا يُناديه :

- يا حضرة، لو سمحت.

أراد أن يتوقف، لم يلتفت، وسارع بقدميه نحو الحرية .

سمع صوت أقدام تتدافع وراءه، وأمسك أحدهم بساعده اللين.

- هو مش أنت المريض اللي في الدور التالت تبع عفاف؟

تلعثم، ثم بكى يستسمحه، ولما جره الرجل من ذراعه برفق إلى الداخل كيلا تحدث المشكلات، ظل يردد بخفوت، وبلا انقطاع :

- شوية، هَاشِمّ شوية هوا بس وهرجع على طول.

الفهرس